أصول الحضارة في الشرق الأدنى
وتاريخها المبكر

الفصل الثالث

قصة مصر

أقدم الحضارات وعصر بناة الأهرام

بدء التنظيم الإداري في مصر

وإذ نعود الآن لنستأنف الحديث عن التقدم الإنساني في العصور المبكرة في الشرق الأدنى، فإذا بدأنا بمصر، نذكر كيف تتبعنا صيادي شمال أفريقيا وهم يهبطون إلى وادي النيل عندما أخذت الهضبة في الجفاف، ونذكر أيضاً كيف بدأ هؤلاء الصيادون في الانتقال إلى حياة مستقرة وأخذوا يربون الماشية ويزرعون الأرض

ولما كان الماء أساسياً لنمو الحب في الحقول، ومصر بلد ينعدم فيه المطر، فإن المصريين الأوائل كانوا مضطرين لعمل جهاز بسيط ليرفعوا المياه به من النهر أو من القنوات التي تستمد مياهها منه حتى تظل الجداول في الحقول ملأى بالمياه ويجيء اليوم الذي ينضج فيه ما فيها من حبوب . وما زال المصريون في الوقت الحاضر يستعملون هذه الآلة لرفع المياه وهي الآلة نفسها التي ورثها أجدادنا نحن معشر الأمريكيين، وكانت تستعمل كثيراً من الأوقات في نيو انجلاند[1] لنزح آبار المياه .

إن التربة السوداء التي يأتي بها النيل من هضبة الحبشة عظيمة الخصب، وكان النيل في كل صيف يرتفع فوق مستوى شاطئيه ويغطي الأرض المستوية ويظل فترة كافية لترسيب طبقة من تلك الرواسب . وجاء اليوم الذي ملأت فيه تلك الرواسب أيضاً الخليج الكبير الذي كان في آخر النهر وكوّن ما نسميه الآن بدلتا نهر النيل .

---

١ ـ الولايات التي على الشاطىء الشرقي من الولايات المتحدة الامريكية

شكل : ١٨ ـ الشادوف المصرى ـ أقدم أنواع الاجهزة لرفع ميـــاه الابار ـ يستعمل لرى الحقول ٠

يقف الرجل الذى فى أسفل الصورة فى الماء ممسكا بدلوه المصنوع من الجلد (أ) فى الصورة ونرى فوقه قائم الشادوف (ب) وفى نهايته كتلة كبيرة من الطين لتثقيله وايجاد التوازن ٠ وهناك قائم آخر لتثبيت الشادوف فيه (د) ٠ ويرفع هذا الرجل المياه ليضعها فى حوض صغير من الطين (هـ) ٠ ونرى فى الصـورة أيضا رجلا آخر يرفع المياه بنفس الطريقة من الحوض (ء) الى حوض أعلى (و) ٠ وفى أعلى الصورة رجل ثالث (ز) يرفع المياه من الحوض الاوسـط الى الحوض الاعلى (ح) الى جانب الجزء العلوى من الشاطىء ومنه تسير الميـاه فى القنوات المتفرعة فى أرجاء الحقول ٠

ويحدث ذلك أثناء انخفاض المياه ويستمر أمثال هؤلاء الناس يرفعون الميـــاه من أسفل الى أعلى على ثلاث درجات ، يعملون ليلا ونهارا دون انقطاع مدى مائةيوم فى كل عام

وفى هذه الدلتا ومعها باقى الوادى حتى الشلال الأول ، اثنى عشر ميلا مربعاً من الأرض الصالحة الزراعه ، أى ما يعادل مساحة ولايتى ماساشوستس وكونيتيكت مجتمعتين تقريباً[1] ولكن المساحة التى كان من الممكن زراعتها فى العصر النيوليتى كانت أقل من هذه المساحة بكثير لأن الوادى كان فى تلك الأيام مليئاً بالمستنقعات. ولم يكن من الميسور زراعة بعض المحاصيل إلا فى أراض متفرقة هنا وهناك تفصلها تلك المستنقعات ، وكانت سرعة تيار النهر وقوته من العوامل التى جعلت زراعة شواطىء النيل عملا صعباً ، ولكن الأمر كان يختلف فى الدلتا ، فهناك تفرع نهر النيل إلى نهيرات صغيرة تيارها بسيط . وكان من السهل استصلاح المستنقعات لتصبح أرضا زراعية .

ومع مضى الزمن كان سكان الدلتا أسبق فى الحضارة من سكان الصعيد ، وكان هذا السبق فى الدلتا سبباً فى تنظيم أهلها لأنفسهم وتعاونهم فيما بينهم . وانتهى الأمر بأن أصبحت لهم حكومة بعد أن مضى عليهم وقت غير قليل عندما أحس السكان بحاجتهم إلى زعيم ، لأن الناس عادة يحسون بضرورة وجود من يتزعمهم عندما يحتاجون له ليعاونهم فى تنظيم الدفاع عن أنفسهم إذا ما هاجمهم عدو . ولكن زعامة مثل هذا الرئيس المحارب لم تضمن دائماً حسن الإدارة ، لأنه من الأفضل لمثل هذه الجماعة أن تجد زعيما ليحاسب من عينهم ليعنوا بأمر جداول الرى والترع ويرشدهم إذا احتاجوا إلى إرشاد . فإن فيضان النيل كان يملأ الترع بالطمى ، وكان من الضرورى على سكان أى مجموعة من القرى أن يتعاونوا فيما بينهم ويذهبوا لحفر تلك الترع وتطهيرها ، فإنهم يعلمون أنهم إذا أهملوا ذلك امتنع جريان الماء

---

١ ـ ولايتان من ولايات شرق أمريكا ومن أهم ولايات نيو انجلترا وأكثرها فى الاهمية الصناعية والتعليم . وتبلغ مساحة كونيتيكت Connecticut ٥٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٧ر٢٨٠ ر٢ نسمة . وتبلغ مساحة ماساشوستس Massachusetts ٨٢٣٧ ميل مربع وعدد سكانها ٤ر٧٠٥ ر٠٠٠ نسمة (المعرب)

إلى الحقول التى يعتمدون عليها فى الحصول على الحبوب ولن يكون هناك محصول ، أى أنه لن يتيسر لهم الحصول على الخبز. وكان الإشراف على مثل هذا العمل محتاجاً إلى زعيم ليس محارباً فحسب بل تتوافر فيه صفات كثيرة ، وانتهى الأمر بأن شخصاً ذكياً شجاعاً أصبح فى مكان الزعامة بين كل مجموعة من قرى الدلتا .

ذلك ما كان يحدث قبل سبعة آلاف عام على وجه التقريب ، ومن الجائز أن واحداً من زعماء مجموعات القرى فى الدلتا أصبح زعيما محليا وأصبح مشرفاً على أعمال الرى فى منطقة كبيرة . وكان الناس فى تلك المنطقة مجبرين على أن يقدموا له فى كل موسم جزءاً من الحبوب أو الكتان الذى جمعوه من الحقول ، وإذا ما قصر أحدهم فى ذلك فإن الزعيم يأمر بمنع جريان المياه إلى حقله ، بل وربما حدث أكثر من ذلك وهو أن بعض رجال الزعيم يذهبون إلى هذا الممتنع لوضع الأمور فى نصابها ، وهكذا بدأت أقدم مظاهر الضرائب وهى النواة الأولى فى وجود الحكومة .

ويكاد يكون من المحقق أن كثيراً من أمثال هذا الزعيم وطدوا سلطانهم فى الدلتا إلى أن تمكن واحد منهم فأخضع الزعماء الآخرين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم وجعل الدلتا كلها مملكة واحدة ، وهى ما نطلق عليها اسم مصر السفلى لأنها واقعة فى آخر مجرى النيل. وحدث بعد ذلك أن قامت مملكة أخرى فى الجزء الواقع جنوبى الدلتا وشملت وادى النيل أى من قمة الدلتا حتى الشلال الأول وهى منطقة تمتد أكثر من ٥٠٠ ميل ونطلق عليها اسم مصر العليا .

كانت هاتان المملكتان قائمتين منذ سبعة آلاف عام أى حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م . ، وظلتا متجاورتين عدة قرون . وكانت الحياة إذ ذاك شبيهة إلى حد ما بحياة الهنود فى أمريكا — قبل أيام خرستوف كولومبوس — الذين كانوا يعتمدون اعتماداً تاماً على الزراعة فى حياتهم .

وكان الملك يعيش فى كل من هاتين المملكتين فى عاصمة ملكه. ولكن تلك المبانى التى أقامها الملوك كانت بسيطة وأقل من أن تقاوم الزمن فزالت، ولم يصبح لها أثراً. وكان الناس يعيشون فى قرى على طول النهر لا تزيد عن عدد من الأكواخ والمنازل الصغيرة المبنية من الطين شبيهة بما كان قائماً منها قبل ذلك العهد. وقد زالت أمثال هذه المبانى بالطبع. ولكن هؤلاء الناس اعتادوا أن يدفنوا موتاهم على حافة الصحراء خلف القرى التى كانوا يعيشون فيها. كانوا يدفنون هؤلاء الموتى فى حفر غير عميقة وأثبتت الحفائر التى قام بها الأثريون فى تلك الجبانات أن المعدن لم يستعمل إلا قليلا. وذلك يرجع إلى أن صناعة التعدين لم تكن معروفة لهم، ولهذا لم يستطيعوا الحصول على كميات كبيرة منه. ومن ناحية أخرى لم يكن هناك أحد يعرف كثيراً عن صناعة شىء من ذلك المعدن. ومن المعروف أن المعدن لا يلعب دوراً هاماً فى حياة الإنسان اليومية. إذا اقتصر استعماله على صنع بعض أدوات صغيرة مثل دبابيس الزينة أو بعض حبات تتخذ لصناعة عقود النساء أو صنع أزميل من وقت لآخر. ولذلك استمر الناس يستعملون الأدوات والأسلحة المصنوعة من الحجر كما كانوا يفعلون من قبل.

ومن المحتمل جداً أن الصلة التجارية كانت كبيرة بين المملكتين لأن النيل يوحد بينهما. ومن المحتمل أيضاً أنه حدثت فترات قامت فيها الجفوة مكان الود. وأخيراً حوالى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد قام ملك قوى من ملوك الوجه البحرى (مصر السفلى) وخرج إلى الوجه القبلى (مصر العليا) غازياً وانتصر على ملكه. ولسنا نعرف حتى الآن اسم هذا الملك الذى تم على يديه تحقيق أول مملكة تجمع بين شمال مصر وجنوبها. ولسنا نعرف الاسم الذى أطلقه على تلك المملكة الجديدة ولكننا نسميها إصطلاحاً باسم « الإتحاد الأول ». ومن الجائز أن تلك المملكة

استمرت بضع قرون من الزمان . حكم أثناءها كثير من الملوك كانوا يعيشون فى هليوپوليس « مدينة الشمس » التى كانت العاصمة الأولى لمصر الموحدة . كانت هذه المدينة بحكم موقعها مركزاً وسطاً بين المملكتين وظلت دائماً أكثر المدن المصرية تقديساً وأهمية .

قيام الحضارة المصرية المبكرة على أساس الزراعة

أصبحت مدينة هليوپوليس أثناء « الاتحاد الأول » مركز الحياة زاهرة لم تعرفها من قبل ، وبدأ الناس يكوّنون ثروات منقولة لاعهد لهم بها . كانت هذه الثروة هى الحبوب التى تدفقت على العاصمة من الحقول الكثيرة التى لم يعرف الانسان لها مثيلا قبل ذلك اليوم ، وهى حقول انتشرت فى أكثر أرجاء مصر وسهل عليهم زراعتها لاختراعهم للمحراث بعد أن كانوا لا يعرفون غير الفأس . وكان حرث حقل من الحقول بفأس خشبية عملا مضنيا وبطيئا مما جعل مساحة الأرض التى استطاع هذا الانسان زراعتها بالحبوب محدودة ، وأخيرا جاء اليوم الذى أدرك فيه أحد المصريين المهرة أنه إذا أطال يد الفأس طولا كافيا يمكنه أن يربط طرفها إلى قائم يثبته بين رأسى ثورين ، فإذا أضاف إلى تلك الآلة الجديدة قائمين عموديين فإنه يستطيع أن يحرك هذا المحراث الجديد ويوجهه كما يشاء عندما يجره الثوران أمامه فى الحقل ، ومنذ ذلك الوقت تطورت حياة هذا الفلاح من ثقافة الفأس إلى ثقافة المحراث .

ويمكننا أن نسمى هذا الاختراع بأنه أول اختراع ميكانيكى للزراعة . فقد كان بداية لعصر جديد . وأصبح الإنسان قادرا على تسخير الحيوان ، وبعبارة أخرى أمكن لهذا الإنسان أن يحصل على طاقة أكبر من القوة الإنسانية وإستعمل هذه الطاقة للمرة الأولى فى زراعة الحقول .

وكان من أثر هذا الاختراع المؤدى إلى إنماء مقادير الغذاء بين الأقدمين شبيها باستعمال الآلات الميكانيكية الحديثة وأثرها فى إنماء الثروة وتقدم الأمم فى العصر الحالى وخاصة فى القارة الامريكية . ويمكننا أن نشبه توسع مصر فى إنتاجها فى عهد « الاتحاد الأول » بما حدث فى الولايات المتحدة عندما توسعت وزادت فى أراضيها

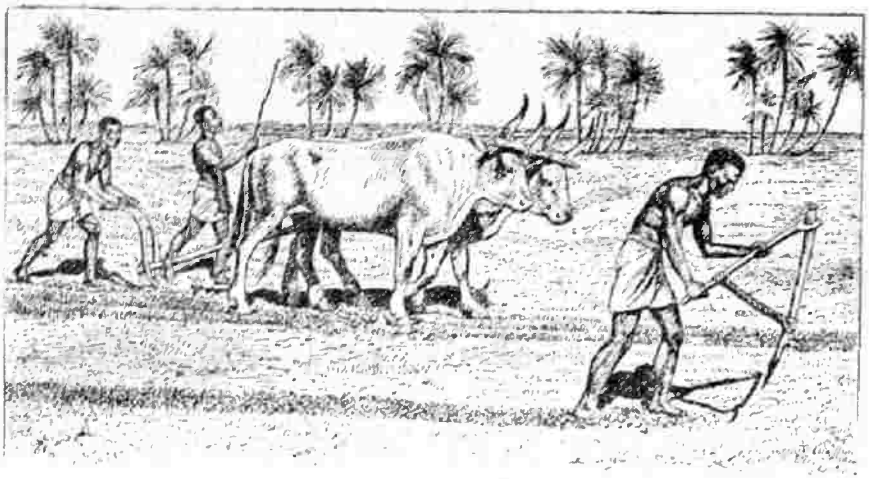

شكل : ١٩ ـ المحراث والفأس التى كانت أصلا له

يوضح هذا الرسم ـ وهـو مستمد من منظر مصرى قديم ـ الفارق الكبـير بين الاثنين . كان المحراث أقوى وأسرع . وكان فى استطاعة من يستعمله أن يحرث فدانا فى اليوم الواحد ، بينما لم يستطع من يستعمل فأسـه ـ اليـوم كله ـ أن يعزق أكثر من ربع فدان عزقا بسيطا لايؤثر الا على القشرة العلوية من الارض . وعلى هذا الاساس كان فى استطاعة المصرى الذى يستعمل المحراث أن يزرع أربعة أمثال مساحة الارض التى كان يزرعها من قبل ، وكذلك تضاعف محصوله أربع مرات وتضاعف بمثل هـذه النسبة المحصول من الحبوب وما يدفعـه للملك من ضريبة

المنزرعة ، وكان أثر زيادة الثروة سواء بالنسبة للحكومة أو للأفراد عاملا مهما فى تقدم الحضارة المصرية . ولم يكن هذا الإيراد السنوى من الحبوب سببا فى زيادة الثروة فحسب بل يسر لهؤلاء القدماء أمر إقراض الآخرين جزءاً من هذه الثروة المنقولة إذا زادت عن حاجتهم ، وبمكنتهم كذلك من دفع الضرائب وتسوية ماعساه أن يكون عليهم من ديون . ومن السهل أن ندرك أن وجود مثل هذه الثروة المنقولة ـ فى وقت لم يعرف فيه الانسان إستعمال النقود ـ كان عاملا مهما ذا أثر كبير فى حياتهم

وأصبحت هذه الزيادة الكبيرة فى مساحة الأراضى المنزرعة سببا فى أهمية وجود الحكومة المركزية للبلاد كلها أكثر مما كانت عليه من قبل لأن زيادة مساحة الأراضى تطلبت زيادة كمية المياه لرى الحقول . وهكذا تغيرت النظم المحلية البسيطة الخاصة بالرى وأصبحت جزءاً من نظام يجمعها كلها . نظام وطنى كبير له مركز إدارة فى العاصمة ، وأصبحت إدارة الرى التى تركزت فى أيدى موظفى الملك أول دولاب إدارى كبير فى تاريخ الإنسانية ، وله أثر واضح فى تنفيذ الأعمال الأخرى

ومن السهل أن ندرك أهمية الزراعة فى حياة المصريين القدماء أثناء فترة « الاتحاد الأول » من الأسماء التى أطلقوها على فصول السنة . فإنهم قسموا السنة إلى ثلاثة فصول ، أولها « الفيضان » ثم « البزوغ » . ومعناه ظهور أو خروج الحقول من مياه الفيضان التى كانت تغطيها — وأخيرا فصل « الحصاد » . وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بين قوم كانت تدور حياتهم حول الرى والعمل فى الحقول حتى يقسموا سنتهم إلى فصول تشير إلى الفيضان وما تصبح عليه الحقول بعد ذلك . وكل فصل من هذه الفصول الثلاثة يحتوى على أربعة أشهر حسب النظام القمرى ، وشابه المصريون فى هذا الشأن جميع الشعوب القديمة الأخرى لأن القمر هو أسهل الوسائل فى حساب الزمن ، مثلهم فى ذلك مثل الهنود الأمريكيين الذين كانوا يحسبون أيضا وقتهم بالشهور القمرية أى الفترة بين الهلالين . فإذا أراد أحدهم مثلا أن يقول إنه قام برحلة استغرقت شهرين فإنه يصفها بأنها استغرقت قمرين .

ولكن الشهر القمرى غير ثابت فى عدد أيامه ، فتارة يكون ثلاثين يوما وأخرى تسعة وعشرين يوما. وفى الوقت ذاته نرى مدار السنة خاضعا للنظام الشمسى، ولهذا لا يصلح الشهر القمرى وحدة لتقسيم الثلاثمائة والخمسة والستين يوماً إلى أقسام متساوية . ولكن رغم الخطأ الواضح له والذى كان يسبب له كثيرا من المتاعب فإن الشهر القمرى كان على وجه التقريب جزءاً من اثنى عشر من تلك السنة ، فاعتبر المصرى أن السنة تحتوى على اثنى عشر شهراً .

وأثبت المصريون أنهم قوم عمليون أكثر من جيرانهم من شعوب العالم القديم . فمن المرجح جداً أنهم عرفوا قبل ، الاتحاد الأول ، عدد أيام السنة ولكنهم لم يعرفوا إذ ذاك أن السنة لم تكن ثلاثمائة وخمسة وستين يوما بل ينقصها جزء بسيط لا يتجاوز ربع يوم آخر . وازاء ذلك لم يكن أمامهم وسيلة لتقسيم السنة تقسيما أكثر دقة إلا ترك نظام الشهر القمرى وما يكتنفه من صعاب . ووجدوا أنه من الأفضل لهم أن يخترعوا لأنفسهم تقويما آخر احتفظوا فيه بعدد الشهور الاثنى عشر . ولكن عدد أيام كل واحد منها يجب أن يكون ثلاثين يوما ، وكانت هذه السنة ذات الثلاثمائة والستين يوما سنة قصيرة أضافوا إليها خمسة أيام أخرى اعتبروها عيداً يحتفلون به نهاية كل عام . وبذلك تصبح السنة ثلاثمائة وستين يوما كما كانت من قبل .

يساعدنا علم الفلك على أن نعرف الوقت الذى تمكن فيه المصريون من الوصول إلى هذا الكشف، ويحدد السنة بأنها كانت عام ٤٢٣٦ قبل الميلاد[١] ، ولهذا يمكننا القول أن اختراع هذا التقويم فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد كان

---

١ ـ كان عام ٤٢٤١ ق.م هو التاريخ الذى حسبه علماء الفلك بأنه التاريخ الذى توصل فيه المصريون الى اختراع تقويمهم ، ولكن اتضح الان ان هناك خطأ بسيطا فى ذلك الحساب واصبح التاريخ الصحيح هو عام ٤٢٣٦ ق.م

أول حادث محدد التاريخ فى حياة الجنس البشرى ، وبالرغم من مضى ستة آلاف عام فإننا مازلنا نستعمل فى حياتنا التقويم المصرى القديم بعد أن أدخل عليه الرومان مع الأسف الشديد بعض تغييرات فى الشهور فجعلوا بعضها يزيد فى عدد أيامه عن البعض الآخر .

ومن ميزات التقويم المصرى أنه جعل للشهور أعدادا تعرف بها ، ولهذا كانت شهورا ذات طابع عملى إذا أردنا تحديد أى واحد منها ، ولكن لم يكن فى ذلك التقويم ما يساعدنا على تحديد أى سنة معينه . فإذا كان الأمر متعلقا بحادث من الحوادث فى السنة التى نحن بصددها فليس هناك صعوبة لأنه يكفى وضع تاريخ خطاب أو تعاقد على عمل بذكر الشهر واليوم ، ولكن إذا كان يعنينا ذكر شىء فى سنة أخرى أو نريد الاشارة إلى حادث جرى منذ بضع سنوات فإن الأمر يصبح معقدا . فنحن نلتجىء الآن مثلا إلى حادث هام وهو مولد المسيح ليسهل علينا حساب السنوات ، ولكن مثل هذا الحل لم يكن معروفا عند المصريين القدماء إذ كانوا يسمون كل سنة بحادث هام جرى فيها . وهذا ما زال متبعا حتى الآن بين هنود أمريكا الشمالية بل مازال يجرى أيضا بين الامريكيين الحاليين فى بعض الاحيان . فإن أهل شيكاغو ما زالوا يقولون فيما بينهم أن أمرا ماحدث «فى عام الحريق الكبير» أو ما زال بعضنا يشير إلى أمر من الأمور بأنه حدث فى « عام توقيع الهدنة » وهكذا كانت أقدم الآثار المصرية المكتوبة مؤرخه بأنها حدثت فى سنوات كانت لها صفات مميزة .

وجاء الوقت الذى أخذ فيه المصريون يحتفظون ببيان بأسماء السنين ، ولما كانت كل سنة منها تشير إلى حادث هام فإن مثل هذه البيانات أصبحت سجلا لتلك الحوادث ومن ثم صارت مصدرا مليئا بالمعلومات للمؤرخين المحدثين .

وأقدم بيان وصل إلى أيدينا من هذا النوع هو حجر بالرمو (لأنه محفوظ فى

متحف مدينة بالرمو فى جزيرة صقلية) وهو أقدم بيان بالسنين فى تاريخ العالم ، إذ أنه يبدأ فى عام ٣٤٠٠ ق . م على وجه التقريب. وكان يحوى عندما كان كاملا أسماء نحو ٧٠٠ سنة تنتهى حوالى ٢٧٠٠ ق . م وأدرك المصريون بعد ذلك أنه من اليسير عليهم أن يحصوا السنين حسب وقوعها فى عصر كل ملك على حدة . وكانوا يقولون مثلا أن حادثا ماوقع فى السنة الأولى أو فى السنة العاشرة من حكم ملك من الملوك ، وانتهى بهم الأمر إلى عمل جداول بأسماء الملوك السابقين فى مدى مئات من السنين .

وفى أول الأمر كانت هذه السجلات على هيئة صور مثلها مثل سجل زعيم قبيلة الداكوتا Dacota الذى كان يثبت فيه السنين كما فى شكل ٢٠ ، ولكن مع تقدم الزمن أصبحت أعمال الحكومة والأفراد فى حاجه ضرورية إلى تدوين معاملاتها ، ولنضرب مثلا بمزارع يريد أن يعرف ما دفعه من ضرائب ؛ فإن هذا المزارع يستطيع أن يحفر على جدار كوخه المبنى من الطوب اللبن رسما بسيطا للوعاء الذى يستعمله فى كيل الحبوب ويضع إلى جواره عددا من الخطوط توازى ما دفعه منها ، وهذه الطريقة نفسها أى الرموز التصويرية كانت أولى الخطوات فى اختراع الكتابة ؛ وهى طريقة ما زالت سائدة حتى اليوم بين بعض قبائل الهنود فى أمريكا الشمالية . ففى « ألاسكا » يرسل سكانها رسائل فى هيئة صوره محفورة على قطعة من الخشب دون كتابة أى كلمات . فمثلا فى الشكل ٢١ نرى صورة يقرؤها واحد من أهالى ألاسكا « لا يوجد طعام فى الخيمة » بينما يقرؤها آخر « لم يصبح للحم وجود فى الكوخ » لأن مثل هذه العلامات التصويرية لاتدل إلا على المعانى فقط . لنضرب مثلا آخر بأحد زعماء الهنود الذى دفعته رغبته لتسجيل أعماله إلى تدوينها بالصور كما نرى فى شكل ٢٢ . فى هذه الصورة أيضا لا نرى أثرا للكلمات ولكنه صور الحوادث التى امتاز فيها بشجاعته بطريقة يمكن التعبير عنها بكلمات ، ولكن هذه الكلمات

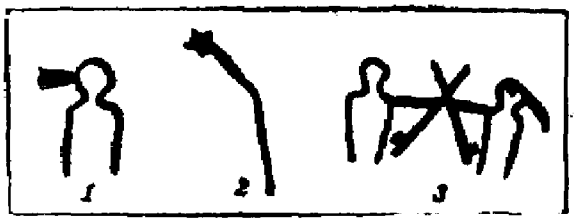

شكل : ٢٠ — جزء من جدول باسماء واحد وسبعين عاما سجله أحد زعماء داكوتا

سجل أحد زعماء داكوتا واسمه «الكلب المتوحد» جدولا بأسماء واحد وسبعين عاما على ثوبه المصنوع من جلد الثور . وتبدأ هذه السنوات فى عام ١٨٠٠ عندما كان طفلا فى الرابعة ، وكان السعال الديكى منتشرا جدا فى تلك السنه فسماها « عام السعال الديكى » وجعل رمزها رأس انسان يسعل بشدة (١) وفى سنة أخرى تساقط كثير من الشهب فسماها «عام الشهب» وجعل رمزها رسما بسيطا لشهاب يهوى (٢) . وفى سنة ثالثة شهد ذلك الزعيم مجلس صلح بين قبيلة الداكوتا وقبيلة القربان فجعل رمزها هنديين اختلف تصفيف شعرهما رمزا للقبيلتين ورسم هذين الهنديين وهما يتبادلان قصبات التدخين (٣) . وهكذا عبر هذا الزعيم بطريقته الخاصة عن كل حادث هام فى السنة . فمثلا بدلا من أن يقول أن شيئا حدث فى عام ١٨١٣ فانه يقول ان هذا الامر حدث عام السعال الديكى وكان اذا أراد معرفة الوقت الذى مر على سنة من السنوات فانه كان يفحص جدوله فيعرف التاريخ .

شكل : ٢١ ـ رسالة فى شكل صورة نقشها على الخشب أحد هنود ألاسكا

نرى فى هذه الصورة شخصا يرخى ذراعيه الى جانبيه ويداه مفتوحتان · وذلك يدل فى عادات هؤلاء الهنود على الحيرة أو الجهل أو الفراغ أو لاشىء أو تدل فقط على كلمه « لا » · والصورة الاخرى لشخص اخر يضع يده فى فمه ومعناها الاكل أو الطعام · وهذا الشخص يشير بيده الاخرى الى الخيمة ومعنى ذلك «فى الخيمة» والرسم كله يعبر عن رسالة مؤداها « لايوجد طعام فى الخيمة »

شكل : ٢٢ ـ سجل مصور يثبت انتصار أحد زعماء قبيله الداكوتا المسمى الرتم الجارى

أعد هذا الزعيم الداكوتى تاريخ حياته فى سلسلة من أحد عشر رسما منها هذا الرسم الذى يمثله عندما قتل خمسة من أعدائه فى يوم واحد · ونرى هذا البطل الرتم الجارى » فوق جواده وبندقيته فى يده وعلى درعه رسم صقر وهو شعار عائلته · وتحت الجواد نرى رئما يجرى وهو يقصد بذلك أن يدل على اسمه الشخصى · ونرى فى الصورة أيضا أثر سير جواده حول غابة الاشجار الصغيرة التى كان يختبىء فيها هؤلاء الاعداء الخمسة وقد عبر عنهم بشخص واحد يقبض على بندقيته ورسم البنادق الاربعه الاخرى وكان اصحابها يطلقونها دلالة على عدد المحاربين الذين كانوا فى تلك الغابه

غير محددة بالضبط وإنما يمكن التعبير عن معنى الصورة بطرق متعددة ، وكانت هذه الطريقة بعينها هي التي اتبعها ملوك مصر الأوائل .

ولكن هذه الخطوة التصويرية التي وقف عندها هنود أمريكا وهي التعبير عن حادث من الحوادث بالرموز التصويرية ليست إلا خطوة تمهيدية للكتابة ، ولا يمكن للانسان أن يصل إلى الكتابة الصوتية إلا بعد خطوتين تاليتين أولاهما أن أي شيء أو غرض يجب أن يكون له شكل ثابت لا يتغير ويمكن لكل شخص أن يعرف أنه هو العلامة لكلمة معينة تدل على هذا الشيء . فمثلا يصبح رسم رغيف من العيش شيئاً متفقا عليه من الجميع ، وهكذا يسمى « رغيف » وليس « خبز » أو « طعام » ، وثانيهما أن تصبح هذه العلامة « مقطعا » له نطقه الثابت أينما كان في الكلمة ، وأنه إذا ورد رسم هذه العلامة بين حروف مقاطع كلمة أخرى فإن ذلك يدل على صلة بين مدلولها الأصلي وقيمتها الصوتية ، وبدون هذه الخطوة لم يكن في استطاعة المصري على الاطلاق أن يكتب كلمات مثل « العقيدة » أو « الحب » أو « الكراهية » أو « الجمال » لو اقتصر على رسم الصور فقط . ولو أنه خطا تلك الخطوة الهامة وهي استعماله لعدد كبير من الصور كعلامات صوتية ، وصارت كل منها مقطعا لما كان في مقدوره أن يكتب كل كلمة عرفها ، لأن بعضها كان لا يمكن رسمه . وهكذا مكنته هذه العلامات الصوتية من أن يصبح أول من عرف الكتابة الحقة التي نشأت بين سكان وادي النيل قبل ظهورها في أي شعب آخر من شعوب العالم القديم .

وجاء الوقت الذي أصبح في الكتابة المصرية القديمة أكثر من ستمائة علامة تعلمها الكتاب المصريون ، وأصبحت الكتابة مجموعة كبيرة العدد من العلامات . وكان بعض هذه العلامات يمثل كلمة قائمة بنفسها ، كما كان بعضها في حاجة إلى علامة أو علامات أخرى معه ليصبح كلمة ، ومن ثم أصبح في استطاعته وضع كلمة بعد أخرى وكون جملا أدت إلى ما يقصد التعبير عنه .

وفى تاريخ مبكر تقدم المصريون فى هـذا المضمار فأصبح لديهم عدد كبير من العلامات تعبر كل منها عن « حرف » أى صار لديهم حروف أبجدية ، ولم يأت القرن الثالث والثلاثين قبل الميلاد أى فى أواخر عهد « الاتحاد الأول » حتى احتوت الأبجدية المصرية على ٢٤ حرفاً ، وهى أقدم أبجدية عرفها الإنسان . ولو أراد المصريون فى ذلك الوقت أن يكتبوا لغتهم بحروف أبجدية لفعلوا ، ولكن الكتاب كانوا قد اعتادوا على استعمال العلامات ، وكانت هـذه الطريقة متأصلة فى نفوسهم ، فلم يستطيعوا أن ينبذوا ما اعتادوا عليه ، مثلهم فى ذلك كمن يكتبون اللغة الإنجليزية كما تعلموها ولا يريدون أن يكتبوها كما ينطقونها ، وإذا كان هناك شخص لا يقر المصريين القدماء على طريقتهم فى كتابة لغتهم واحتفاظهم بمجموعات العلامات رغم صعوبتها فإنى أؤكد له أنه سيكون بين الأجيال القادمة أناس سيسخرون من تمسك كتاب الانجليزية بكتابة كثير من الكلمات كما جاءت إليهم رغم أنهم ينطقونها بشكل مختلف [1]

وخطا المصريون بعد اختراعهم للكتابة خطوة أخرى وهى إيجاد الوسيلة التى تساعدهم على الانتفاع بها فتوصلوا إلى طريقة عمل البراد أو أى ألوان أخرى بوضع قليل من الصمغ فى الماء ويمزجون به الكحل أو الكربون النقى الذى يعلق بخارج الأوانى عند وضعها على النار . ووجدوا أيضاً أنهم لو أخذوا جزءا من قصبة رفيعة وجعلوا إحدى نهايتيها مدببة وغمسوها فى هـذا السائل لسهل عليهم الكتابة بها . وتعلموا أيضاً أنهم لو شقوا نوعاً خاصاً من النباتات التى تنبت على حافة النهر فى

---

١ — يشير المؤلف الى مئات بل الى آلاف الكلمات التى تنطق بشكل مختلف عن كتابتها فمثلا كلمة (Thoroughly) اعتادوا على كتابتها بهذه الحروف ولكنهم ينطقونها (Thurali) او كلمة (Knight) فانه أقرب الى المنطق لو كتبوها nite وهكذا . وقد بدأ كثير من الكتاب المحدثين — وخاصة فى أمريكا — فى محاولة كتابة بعض الكلمات كما ينطقونها . ولكن محاولاتهم محدودة . وليس هناك مايدل على حدوث تغيير جوهرى فى وقت قريب . (المعرب)

المستنقعات — وهو نبات البردى — إلى فلقات صغيرة لأمكن الكتابة عليها فى يسر . وأدرك أن استعمال هذا البردى أسهل فى الحمل من قطع الفخار والعظم والخشب والحجر التى كان يستعملها من قبل . وإذا أرادوا الحصول على صفحة كبيرة فإنهم كانوا يضعون تلك الفلقات بعضها طولية والبعض الآخر عرضية فوقها ثم يضعون صفحة بعد أخرى ويلحمون أطرافها بوضع جزء منها فوق الآخر ثم يضغطونها كلها فيصبح السطح أملس مستوياً معداً للكتابة . وكان هذا البردى لايتمزق بسهولة . أما لونه فكان شبيها بالورق الأبيض أو الورق الأصفر الفاتح اللون . من هذا نرى أن المصريين قد اكتشفوا أن سطحاً رفيعاً من مادة نباتية هو خير ما يمكن استعماله للكتابة . ومنذ هذا الاكتشاف لم يستطع أحد أن يكتشف مادة خيراً منها ، وبالاختصار فإن المصرى القديم ، اكتشف القلم والحبر والورق ، وورثناهذه الاكشافات الثلاثة عنهم . ومازال الورق يسمى باسمه القديم

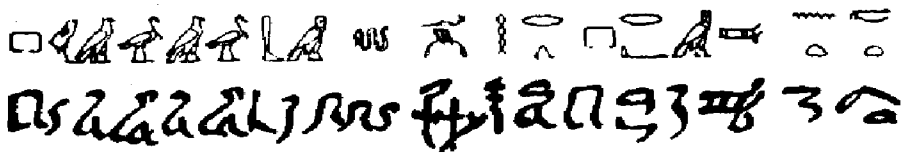

شكل : ٢٣ — مثل من الهيروغليفية (فى السطر العلوى) وما يماثله بالكتابة الهيراطيقية (فى السطر الذى تحته) وكانت هذه الاخيرة تكتب بسرعة بالحبر والقلم على أوراق البردى وتستعمل فى جميع الاعمال اليومية

تماثل الكتابة الهيراطيقية مانكتبه باليدين فى حياتنا اليومية . أما الكتابة الهيروغليفية فهى تماثل حروف الطباعة . ونرى فى المثل السابق أن الكتابة الهيراطيقية ليست الا العلامات نفسها فى السطر العلوى . وكان المصريون يكتبون فى أغلب الاحيان من اليمين الى اليسار كما فى هذا المثل . ولكنهم كانوا يكتبون فى بعض الاحيان من اليسار الى اليمين ومن أعلى الى أسفل . وفى العصر المتأخر فى القرن الثامن قبل الميلاد بدأوا يستعملون كتابة أخرى أسرع وأكثر اختصارا وهى الكتابة المعروفة باسم الديموطيقية

« پاپيروس » (فى اللاتينية) مع تغيير طفيف[1] .

وكان لاختراع الكتابة واختراع إستعمال الورق أثر عظيم فى رفع مستوى الجنس الانسانى أكثر من أى شىء آخر ، لأنه أهم من جميع الحروب التى خاض الناس غمارها وأهم من جميع النظم أو الدساتير التى وضعت منذ خلق الله هذا الكون

ولم تكن الكتابة منتشرة الإستعمال بين عامة الناس ، بل كادت تكون وقفا على المعابد وعلى بلاط الملوك والموظفين . وظل الناس يعيشون فى قراهم كما كانوا يفعلون من قبل فى العصور المبكرة . ودفن هؤلاء المصريون الأوائل موتاهم فى جبانات على حافة الصحراء قريبة من قراهم . وظلت أماكنها مجهولة من علماء الآثار حتى عام ١٧٩٤ عندما عثر عليها بعض الباحثين ، واستمر العلماء بعد ذلك يعثرون عليها من آن لآخر فى مناطق مختلفة على حافة الصحراء ممتدة على الجانبين الشرقى والغربى من نهر النيل . وأمدتنا آلاف المقابر التى حفرت بكثير من الأدوات والأشياء المختلفة التى مكنتنا من معرفة نوع الحياة التى عاشها هؤلاء الناس . فكانت أوانيهم الفخارية التى وضعوها فى مقابرهم ملونه فى بعض الأحيان بمناظر تمثل مراكب نيلية ذات مجاديف عدة ـ وهذه السفن هى أقدم ما عرفناه ، وهى تثبت لنا وجود الصلة التجارية بين المدن المختلفة لأن كل مركب من تلك المراكب وضعت قائما عليه شعار المدينة التى أتت منها مثل الراية . وقد أمدتنا جبانات عصر الاتحاد الأول ، برسم ثلاثمائة من تلك المراكب وعليها راياتها . وكانت تلك المراكب تجرى فوق صفحة النيل من شماله عند البحر الأبيض حتى جنوبه عند الشلالات . وكان أهل الدلتا هم أصحاب السبق فى التجارة لأننا عثرنا فى غرب الدلتا على مائتين

---

١ ـ ان التغيير من پاپيروس (Papyros) الى پيپر Paper طفيف جدا لان (ros) لاحقة تعنى الاسم بينما البعض الكلمات فى اللغة اليونانية يجب حذفها فى الانجليزية . وهذا يمثل بوضوح تام ان أصل الكلمة الانجليزية ماخوذ من الاسم القديم .

واثنين وعشرين رسما لتلك القوارب ذات الرايات ، وهذا يدل فى الوقت ذاته على أن أقدم ميناء على شاطىء البحر الأبيض كانت من المرجح فى الركن الغربى من الدلتا أى ليس بعيداً عن المكان الذى اختاره الاسكندر الأكبر لبناء مدينة الاسكندرية أهم موانى العالم القديم . ولم تقتصر تلك التجارة على الجزء الشمالى من وادى النيل بل تغلغلت أيضا فى الجنوب، ونرى فى نقش على الصخور جنوبى الشلال الأول مركبا يجرها بالحبال ثلاثة وثلاثون رجلا لكى يسحبوها بين صخور الشلال. وكان طول هذه المركب نحو عشرة أقدام أى أنها لم تكن زورقا صغيرا. ووجودها فى هذا المكان قرينة على اتساع نفوذ ملوك مصر فى ذلك العصر المبكر وامتداده نحو الجنوب .

وأمدتنا جبانات ذلك العصر بعدد كبير من الأدوات والآلات النحاسية أكثر مما كانت تمدنا به جبانات من سبقوهم ، وكان فى استطاعة بعض أولئك الناس أن يقتنى خنجرا من النحاس بينما كان غيرهم يستعمل سكاكين الحجر. وكانت الفؤوس النحاسية والأزاميل من السلع التجارية التى اتجر فيها أصحابها من الصناع القليل العدد

وجاء اليوم الذى انتهى فيه عصر « الاتحاد الأول » وانفصلت المملكتان وظلتا منفصلتين مستقلتين زمنا طويلا حتى ظهر فى الصعيد حاكم قوى جعل نفسه أولا حاكما على مملكة الوجه القبلى ثم غزا بعد ذلك مملكة الوجه البحرى وأخضعها لسلطانه . وكان ذلك عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد(١) . ذلك هو الملك « منا » الذى حقق اتحادا جديدا لمملكتى الشمال والجنوب والذى ورث حضارة عصر « الاتحاد الأول »

وكما امتاز عصر « الاتحاد الأول » بأنه قام بسبب التطور الذى حدث نتيجة

---

١ ـ ذكر المؤلف فى كتابه تاريخ ظهور « منا » عام ٣٤٠٠ ق.م . ولكن الابحاث الحديثة اتفقت على أن ٣٢٠٠ ق.م. أقرب الى الصواب . بل ويرى البعض انه ٣١٠٠ او ٣٠٠٠ .ويقال آخرون فيجعلونه اقل من ذلك . ولكن التاريخ الذى اتفق عليه اكثر العلماء هو ٣٢٠٠ ق.م. (المعرب)

لإستعمال المحراث فى الزراعة وما ترتب على ذلك من توفير الحبوب ، فإن الاتحاد الثانى امتاز بأنه قام بسبب التوسع فى استغلال المناجم والحصول على كميات وفيرة من النحاس ، ولهـذا يبدأ « عصر المعادن » بابتـداء « الاتحاد الثانى » . وكان الملوك الأوائل من ذلك العصر يفخرون بالبعثات التى أرسلوها إلى شبه جزيرة سيناء . وما زالت الأنفاق التى قطعوها فى باطن الصخر موجودة إلى اليوم ، وهى أقدم مناجم للنحاس فى العالم ، وعلى مقربة منها نقش خلفاء « منا » من الملوك نقوشا ورسوما تسجل ذهابهم إلى هناك ، وهـــذه المناظر هى أقدم ما وصل إلى أيدينا من آثار تاريخية موضحة بالـكتابة .

بناة الأهرام

عرف المصريون الأدوات النحاسية فاستعملوها ، وكان لذلك الأثر الأكبر فى تحت وبناء مقابرهم وانشاء المعابد المبنية بالحجر . وخير دليل على ذلك تلك الأهرام العظيمة القائمة فى الجبانة الملكية فى الجيزة التى تثبت لنا مدى ما وصل إليه القدماء وما استطاعوا تحقيقه بالأزاميل النحاسية والآلة النحاسية البسيطة التى كانوا يستعملونها فى تفريغ قطع الأحجار لتصبح أوانى جميلة الشكل . ونحن اذ نقف مبهوتين أمام تلك المبانى الضخمة لا نكاد نصدق أن أجداد من بنوا هذه الاهرام لم يكن قد مضى عليهم غير بضع أجيال قليلة . كانوا إذ ذاك فى مستهل حضارتهم وكانوا يدفنون فى حفر صغيرة على هيئة القرفصاء . ونرى الآن ابناءهم وقد خطوا خوات جبارة مكنتهم من الوصول إلى هذه الحالة . ولقد تمكن المصرى القديم فى وقت قصير من السيطرة التامة على البناء بالحجر ، ولكننا رأينا قبل الآن أن هذه الخطوة سبقتها خطوات بطيئة وطويلة المدى حتى تطور المصرى وتغيرت حالته ، فأصبح يستعمل الأدوات النحاسية بدلا من مثيلاتها من الحجر ، إذ كان اكتشاف النحاس فى سينا قد تم قبل ما يقرب من ألفين من السنين سبقت بناء الهرم الأكبر . أى أن المصرى القديم قضى نحو الفى سنة وهو يعرف النحاس ولكن لم يكن لذلك أثر على فن البناء . وكانت مقابر الملوك الأوائل تبنى من الطوب . وكانت لا تزيد عن حجرة تحت الأرض يغطيها سقف من الخشب فى مستوى سطح الأرض ويوضع فوقها كوم كبير من الرمل والحصى ، وأقدم ما عرفناه من البناء بالحجر هو حجرة دفن أحد الملوك ، كانت جدرانها مبنية بالطوب وكسيت ـ جدرانها ـ من الداخل بقطع من الحجر الجيرى ، ولكن لم يمض على ذلك العهد مائة وخمسون سنة أو أقل حتى وجدنا هؤلاء الملوك يبنون مدافنهم الملكية على شكل أهرام من الحجر .

كانت أقدم المدافن الملكية تبنى تحت مستوى سطح الأرض، وجاءت الخطوة التالية فبنوها فوق الأرض ولكنها كانت من الطوب اللبن . وفى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد أقام المهندس المعمارى « إمحتب » للملك زوسر أول بناء من الحجر، فبنى له قبرا كان وما زال أقدم بناء من الحجر فى تاريخ العالم ، وحول هذا القبر الضخم بنى إمحوتب مجموعة رائعة من المبانى الجميلة المبنية بالحجر الجيرى منها بناءان (١) حليت واجهتهما بأعمدة رشيقة مضلعة ، يخيل لمن يراها إنها لا تختلف عن الأعمدة الرشيقة اليونانية التى بناها اليونانيون بعد عصر إمحوتب بألفين وخمسمائة سنة .

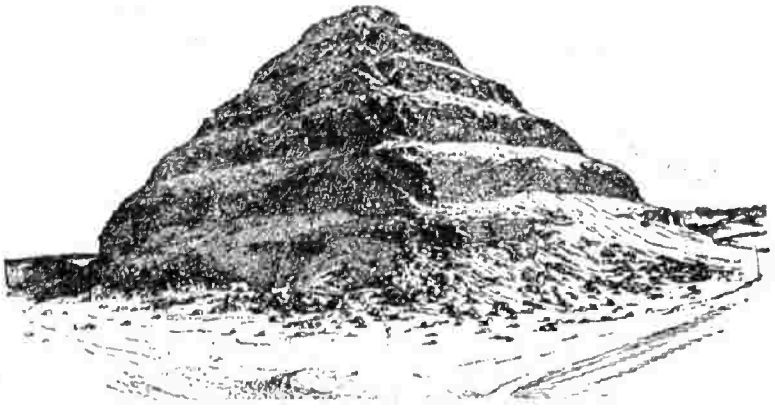

شكل : ٢٤ ــ أقدم بناء حجرى فى العالم مازال قائما حتى الآن
الهرم المدرج هو قبر الملك زوسر · وقد بنى على هيئة مصاطب يعلو بعضها البعض وارتفاعه نحو ٢٠٠ قدم · بناه المهندس المعمارى امحوتب حوالى عام ٢٨١٥ ق·م (٢)

---

١ ــ ذكر المؤلف أن هذين البناءين مقترنان لبعض أفراد عائلته · وكان هذا هو الرأى السائد منذ بضع سنوات ، ولكن قد تغير ذلك الرأى الآن بعد فحص البناءين · وعرف انهما بناءان أقيما للاحتفال باعياد الملك ، أحدهما يسمى الآن « بيت الوجه البحرى » والثانى « بيت الوجه القبلى » واحيانا يسميان فى كتب الآثار « بيت الشمال » و « بيت الجنوب » (المعرب)

٢ ــ التاريخ المذكور فى المؤلف هو ٢٩٤٠ ق·م· كما ذكر المؤلف أيضا فى التعليق على هذا الشكل انه من المحتمل أن الاماكن بين المصاطب ملئت وكان يغطيها كلها جدار مائل وبذلك كان الهرم المدرج هو أقدم المحاولات للحصول على الشكل الهرمى الصحيح · ولكنه من المؤكد الآن بعد الابحاث الحديثة استحالة هذا الاحتمال · ولم يكن الهرم المدرج عند بنائه الا على هيئة مصاطب يعلو بعضها بعضا · اما الهرم الاول الحقيقى فلم يبنه المصريون الا بعد قرن من الزمان · وكان أول الاهرام الحقيقية هو هرم الملك سنفرو في دهشور (المعرب)

شكل : ٢٥ ـ رسم يمثل الهرم الاكبر فى الجيزة وبعض ماحوله من آثار كما كانت بعد تشييدها مباشرة

شيد بعض عظماء ملوك عصر الاهرام تلك المقابر ، ونرى الى يمين الصورة هرم الملك خوفو ، وهو المعروف باسم الهرم الاكبر والى اليسار هرم الملك خفرع الذى يصغر قليلا فى الحجم عن الهرم الاول · وفى الجهة الشرقية من هذا الهرم يقوم معبد تقدم فيه المآكل والمشروبات والملابس ليستخدمها الملك المتوفى فى حياته الاخرى · وبنى القدماء تلك المعابد فوق الهضبة على حافة الصحراء الى جانب الاهرام · أما المدينة التى كان يعيش فيها الملك فانها كانت فى الوادى فى وسط الاراضى المنزرعة · وكان هناك معبد على حافة الزراعة هو معبد الوادى يدخله الزائرون ويصعدون الى المعبد العلوى شرقى الهرم سائرين فى ممر طويل مسقوف مبنى بالحجر · ونرى فى الصورة الممر الموصل بين المعبد الجنازى للملك خفرع ومعبد الوادى لهذا الملك الذى كان على مقربة من المدينة ، ونرى فى الصورة أيضا تمثال « أبو الهول » فى الناحية الشمالية من هذا المعبد · وحول اهرام الملوك نرى عددا من اهرام الملكات ومقابر كبار الرجال فى كل عهد · والى اليسار فى الصورة نرى مقبرة ملكية كان العمل جاريا فيها وحولها الجسور الصاعدة المبنية بالطوب والتى كانت تزال بعد اتمام البناء (١) « عن هولشر »

---

١ ـ ورد فى الاصل ـ اعتمادا على راى هولشر فى اوائل القرن الحالى ـ أن البناء الذى على اليسار هرم لم يتم بناؤه · ولكن اتضح بعد كشف هذا البناء فى عام ١٩٣٢ انه مقبرة ملكية للملكة « خنتكاوس » وانها كانت على شكل تابوت كبير فوق صخرة ، ولم يكن الجزء العلوى منها هرمى الشكل

كانت فكرة إمحوتب فى تشييد الهرم المدرج خطوة هامة نحو تشييد المقابر الملكية على شكل هرمى . ولم يمض إلا أقل من قرن واحد حتى رأينا المعماريين المصريين يقيمون الهرم الأكبر فى الجيزة . كان هذا القرن فترة تقدم كبير فى فن البناء. وهو راجع إلى تحسين الانسان للقوى الميكانيكية التى كانت ميسورة له . ونحن لا نجد فى تاريخ العالم فترة تقدم سريع مطرد شبيهة بهذه الفترة لذلك القرن إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ويزداد تقديرنا لهذا التقدم عندما ندرك أن مساحة قاعدة الهرم الأكبر تبلغ ثلاثة عشر فدانا ، وأن البناء كله مبنى بكتل من الحجر الجيرى يبلغ عددها ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ حجرا على وجه التقريب، متوسط وزن كل حجر منها طنان ونصف طن ، وطول ضلع الهرم عند القاعدة ٧٥٦ قدما (١) (٢٣٠٫٥٧ متراً) وارتفاعه عندما كان كاملا ٥٠٠ قدم تقريبا (أكثر من ١٥٠٠ مترا) وحسب رواية هيرودوت ـ وهى جديرة بالتصديق ـ فإن مائة الف عامل ظلوا يعملون فى بناء هذا الهرم عشرين عاما . ومثل هذا العمل الكبير يحتاج إلى حاكم قدير وعدد كبير من الموظفين الاكفاء الذين كانوا حوله ، فليس من السهل إطعام مائة الف شخص وتنظيم عمل كل منهم عندما كانوا جميعاً يعملون حول هذا البناء ، ولا شك أن الحاكم الذى يأخذ على عاتقه مثل هذا المشروع الضخم كان أقوى رجل رآه العالم . كان القصر الذى يعيش فيه يسمى « البيت الكبير » . وكان الناس عندما يتحدثون عن ملكهم يشيرون اليه باسم « البيت الكبير » وهو الاسم نفسه الذى وصلنا عن طريق اللغة العبرية « فرعون » الذى أصبح لقبا عاما لكل الملوك .

وقامت حول أهرام الملوك مقابر كثيرة مبنية بالحجر بعضها لأفراد عائلته

---

١ ـ اذا قارنا هذا الهرم بمبنى الكلوسيوم (Colosseum) فى روما فاننا نرى أن طول الكلوسيوم هو ٦٠٠ قدم تقريبا مع الفارق الكبير وهو أن الكلوسيوم لم يكن الا سورا كبيرا حول فضاء . أما الهرم الاكبر فكان مبنيا كله بالحجر .

والبعض الآخر لذوى النفوذ من رجال بلاطه الذين كانوا يديرون دفة أعمال الحكومة تحت إشراف الملك ، فقد كانوا حوله فى قصره فى حياته وأرادوا أيضا أن يكونوا حول هرم سيدهم بعد مماته، وبذلك أصبحت جبانة الجيزة وما زالت حتى اليوم ، صورة من الادارة الحكومية فى مصر فى عهد الاتحاد الثانى . وكان يعاون الملك نوعان من الموظفين أحدهما الموظفون المحليون المنتشرون فى جميع أرجاء مصر ، والنوع الثانى الموظفون المركزيون الذين كانوا يعيشون فى العاصمة حول الملك ، وكان موظفو الأقاليم مكلفين بجمع الضرائب ويدخل فى اختصاصهم الفصل فى القضايا . وكان أمام كل قاض منهم قانون مكتوب يحكم بمقتضاه (١)

أما المبنى المركزى فى العاصمة على مقربة من الملك فكان عبارة عن مكاتب متعددة مبنية من الطوب اللبن قليلة الارتفاع يعمل فيها مئات من الكتبه، يجلس كل منهم وقلمه فى يده وأمامه قراطيس البردى يكتب فيها حسابات الملك وكل مايتطلبه العمل من تدوين . وكان لدى هؤلاء الكتاب سجلات بأسماء دافعى الضرائب والمبالغ المستحقة عليهم ، وهذا هو مانفعله اليوم . ولكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أن أوروبا لم تعرف مثل هذه الاجراءات إلا فى أيام الامبراطورية الرومانية فقط

أما الضرائب المستحقة فكان الناس يدفعونها عينا سواء من الحيوانات أو الحبوب أو النبيذ أو العسل أو القماش أو ما شابه ذلك ،وكانت هذه الضرائب توضع فى حظائر وشونات غلال ومخازن ، وهى فى مجموعها الخزانة الملكية على مقربة من بعضها فى مجموعات كبيرة من المبانى والأحواش .

وأعطت تلك المبانى الحكومية لعاصمة البلاد مظهراً خاصاً، وزادت فى عمرانها واتساع رقعتها فأصبحت أكبر مدينة عرفها الإنسان حتى ذلك الوقت ، وكان أهم

---

١ ـ لم يعثر العلماء حتى الآن على نسخة من القانون المصرى القديم ، ولكن هناك اشارات كثيرة اليه فى كتابات المصريين والمناظر التى على الآثار

أحياء تلك العاصمة هو الجزء الذى قام فيه القصر الملكى تحوط به الحدائق يليها بيوت كبار الموظفين ومكاتب الحكومة ، وخاصة الخزانة ، تلك هى المدينة الملكية التى امتدت من الجيزة وما يليها إلى الجنوب وأصبحت تعرف فيما بعد باسم « منف » ولم يبق من تلك المدينة الملكية القديمة أى أثر لأنها كانت مبنية بالطوب اللبن والخشب .

أما مدينة الأموات وهى الأهرام وما تجمع حولها من مقابر ، فلم تلق المصير نفسه لأنها كانت تبنى بالحجر وهى مادة أكثر بقاء على الزمن من الطوب ، ولهذا أصبح من السهل علينا أن نتتبع تاريخ العائلة الملكية وأقاربها فى جبانة الجيزة خلال مائة سنة وعشرة وهى الفترة التى كان يدفن فيها أكثر ملوك الأسرة الرابعة وموظفوها. كما تمدنا الجبانات الأخرى بمعلومات تجعلنا نتتبع تاريخ هذه العائلة إلى مدى أبعد من ذلك .

إن المنظر الذى نراه من قمة الهرم الأكبر من أجمل ما تقع عليه العين وبخاصة إذا ألقينا ببصرنا نحو الجنوب ورأينا تلك السلسلة من الأهرام يتلو بعضها بعضا حتى يغيبها الأفق عن ناظرينا . إن كل واحد من هذه الأهرام كان مدفنا لملك عاش وحكم ثم مات . حكم هؤلاء الملوك نحو خمسمائة عام. وكان كل من يموت منهم يدفن فى أغلب الأحيان فى هرم ، وكان يختار كل منهم لهرمه مكاناً على هذه الهضبة حتى امتدت فأصبحت أكثر من ستين ميلا تقص علينا هى وما حولها من جبانات قصة مصر خلال خمسة قرون من الزمان ـ هذه الفترة تبدأ من القرن التاسع والعشرين حتى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، وهى مايطلق عليها الكثير من العلماء اسم عصر بناة الأهرام .

عقائد المصريين وآراؤهم الدينية

بذل المصريون كثيراً من مالهم ووقتهم ومهارتهم وجهودهم فى بناء مقابرهم وتأثيثها، وذلك لعقائد خاصة بالحياة بعد الموت ، إذ اعتادوا على دفن موتاهم قبل أن يكون لهم ملوك أو مملكة بآلاف السنين . ومع هؤلاء الموتى وضعوا الادوات التى كانوا يستعملونها أثناء الحياة حتى فى الوقت الذى كان يعيش فيه سكان وادى النيل كصيادين بدائيين . دفنوا موتاهم ومعهم أسلحتهم وأوان فيها المآكل والمشارب ، فلما تقدم الزمن وصار لهم ملوك وحضارة زاد ما كانوا يدفنونه مع موتاهم، وبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيها الأثاث الجنازى الكثير . وبالرغم من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموتى سيحيون حياة أخرى فى مكان بعيد عن القبر وبعيد عن الجسد الموسد فيه فإنهم لم يستطيعوا يوماً من الأيام أن يفصلوا فصلا تاماً بين الجسد الذى فى القبر وبين تلك الحياة الأخرى ، ولم يتصوروا الخلود للموتى دون أن يكون للجسد نصيب فيه ، ولهذا كانوا يحرصون على سلامته وكانوا يتفننون فى المحافظة عليه حتى وصل بهم الأمر إلى إقامة تلك المقابر العظيمة المبنية بالحجر .

ولم يقف بهم الأمر عند بذل الجهد لإيواء وحماية الجسد بعد الموت بل بدأوا أيضاً فى تحنيط تلك الأجساد وحفظها كموميات . وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يظل ذلك الجسد المحنط محتفظاً بشكله فى حجرة صغيرة عميقة داخل القبر تحت بناء عظيم من الحجر . وهذه العقيدة هى السبب الذى جعل كل حاكم من الحكام ينفق الموارد الطائلة على بناء قبر ليكون مقراً لجسده ليأمن سلامته بعد الموت ، وحذا أقارب الملك والموظفون حذو سيدهم فى الاستعداد للحياة بعد الموت . وكثيراً ما كانوا يرتبون الأوقاف للصرف منها على صيانة مقابرهم .

ولكى نفهم تلك العقيدة الخاصة بالحياة بعد الموت يجدر بنا أن نعود بذاكرتنا إلى الوقت الذى كان يعيش فيه الصيادون فى العصر الحجرى ونذكر كيف غيروا طريقة حياتهم وأصبحوا يزرعون الأرض ويحصلون منها على القوت . فلا شك أن الزرع الأخضر الذى نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير فى أصل الحياة ، وكان لهذا التغيير فى حياتهم من صيادين إلى زارعين فى الأرض أثره فى عقيدتهم الدينية. ولم يكن هذا قاصراً على المصريين فحسب بل كان عاماً فى شعوب بلاد الشرق الأدنى الذين اعتمدوا على الزراعة فى حياتهم . وبدأوا منذ وقت مبكر يعتمدون فى حياتهم على ثمرات الأرض . وكان كفاحهم لأجل البقاء يدور حول تلك الزراعة وما تمدهم به من حاصلات . وبث فيهم هذا الإحساس روح الاحترام والاعتراف بالجميل وأدخل على ديانتهم لوناً جديداً . وهذه الروح الجديدة هى الأساس الذى تقوم عليه عقائد هنود أمريكا الشمالية ، بل أنها فى الواقع مازالت ذات أثر كبير فى ديانتنا حتى اليوم ، وقد ورثناها كأحدى النتائج الهامة لما طرأ على أفكار الناس من تغيير عندما تركوا حياة الصيد إلى الحياة الزراعية .

رأى الزارع أن تلك الحبة التى بذرها نبتت وأخضرت وأتت ثمارها ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة ، وفكر فى تلك الحياة المتجددة التى لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً ، وكان من الطبيعى أن يدخل فى روعه الاعتقاد بأن هذا الشىء الحى الذى لا يموت يجب أن يكون إلهاً . وسمى المصريون هذا الإله باسم « أوزيريس » واعتقدوا أنه روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض. وكانوا يرون هذه النباتات المخضرة تذوى كل عام وتتراءى لناظرها كأنها ماتت وفارقت الحياة ولكنها كانت تعود مرة أخرى إلى حياتها ونضرتها. وانتشرت مثل هذه العقيدة على طول الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وامتدت إلى الخليج الفارسى ، وكان هذا الإله يسمى فى غرب آسيا أحياناً باسم « تموز » وأحياناً

باسم « أدونيس » كما كانت له أسماء أخرى تختلف من بلد إلى آخر ، ولذلك نرى فى قصة « أوزيريس » أحب الآلهة إلى قلوب المصريين القدماء أنه عاش ثم مات ثم بعث بعد الموت . وهذا هو ما حدث لجميع الآلهة المحلية فى غرب آسيا وبخاصة فى سوريا وفلسطين وآشور وبابل .

ولم ينس المصريون هذه الصلة القديمة التى تجمع بينهم وبين آسيا فى العقيدة فنقرأ فى أسطورة « أوزيريس » أنه مات ثم سبح جسده حتى استقر أخيراً فى جبيل[1] على الشاطىء الفينيقى حيث عادت إليه الحياة فأصبح شجرة خضراء وعاش مرة أخرى .

وكانوا يرمزون فى غرب آسيا للحياة المتجددة بشجرة. وكانوا يقيمون فى كل عام احتفالا كبيراً ينصبون فيه شجرة ويزرعونها ثم يزينونها ويكسونها بالأوراق الخضراء ، وورث الغربيون هذه العادة، ومازالوا يحتفلون بها عندما يقيمون «عامود شهر مايو « Maypole » الذى ينصبونه ويزينونه ويقيمون المآدب ويرقصون حوله احتفاء بعودة الربيع .

وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة ، ذلك التجديد الذى أمدهم بالقوت الذى يحصلون عليه من حقول الحبوب ، وبعبارة أخرى كان مظهراً دينياً لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم .

ولم يكن لهذا الاعتقاد فى غرب آسيا تأثير يقود الناس إلى الإيمان بحياة ينعمون بها بعد الموت فى العالم الآخر : أما فى مصر فإنهم فضلوا أن يؤمنوا بأن أوزيريس لم يكن القوة التى تمدهم بالحياة وتعطيهم القوت فى هذه الدنيا فحسب ، بل

---

١ ـ هى مدينة بيبلوس Byblos القديمة وتقع على الشاطىء شمال مدينة بيروت العالية

أنه كان يعنى بهم أيضاً فى الحياة الأخرى فيعيشون سعداء عندما يأتى اليوم الذى يموتون فيه وتستقر أجسادهم فى القبور التى يدفنون فيها على حافة الصحراء .

آمن الناس إيماناً قوياً بأن عقيدتهم فى أوزيريس تيسر لهم حياة مباركة فى العالم الآخر، وكانوا يرون فى هذا الإله رمزاً للموت ثم الحياة مرة أخرى، وكانوا يرمزون له بشجرة فى بعض الأحيان وفى الوقت ذاته كان يرى فيه بعض المصريين أنه هو الأرض السوداء التى تخرج منها الحياة المخضرة ويرسمون سنابل الحب وهى تنبت من جسده . ورأى البعض أن الأرض لا يمكن أن تؤتى ثمارها إلا إذا رويتها مياه النيل فاعتقدوا أن أوزيريس هو النيل ، وهكذا اعتقد المصريون أن نهرهم العظيم وأرضهم الخصبة التى ترويها مياهه والحيـــاة المخضرة التى تزدهر بسببه ليست إلا شيئاً واحداً هى إله واحد هو أوزيريس الذى كانوا يرون فيـه رمزاً لحياة الأرض التى لا تفنى .

واعتقد المصريون فى آلهة كثيرة ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الأخرى ، أحدهما أوزيريس الذى لم يقهره الموت ، والآخر هو الشمس التى تبهر البصر بضيائها فى سماء مصر الصافية ، هذا هو الإله « رع » الذى كان أعظم الآلهه المصرية كآله للأحياء والذى أقام المصريون لعبادته أفخم معابدهم . ولم يكن الهرم إلا رمزاً مقدساً له .

ورمز المصريون للكثير من آلهتهم ببعض الحيوانات . وقد سبب ذلك

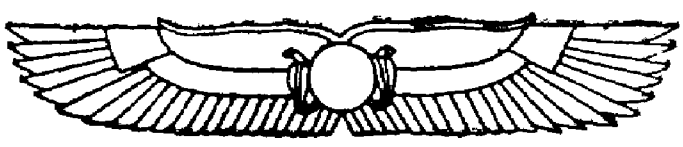

شكل : ٢٦ ـ قرص الشمس المجنح ، رمز اله الشمس
نرى قرص الشمس فى الوسـط وعلى كل جانب منـــه راس أفعى من نوع « الكوبرا » ، أما الجناحان فانهما جناحا صقر ، وكانوا يعتقدون أن اله الشمس فى هذه الهيئه ليس الا صقرا يطير فى السماء

وقوع بعض الناس فى الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن فى أصل ديانتهم وإنما دخل عليها فى أيام اضمحلالهم وفى الوقت الذى بدأت فيه ديانتهم فى الاحتضار فى العصر الرومانى . كما كان كل من قرص الشمس المجنح والهرم رمزاً لإله الشمس .

عصر الأهرام

الاقتصاد - المجتمع - الفن

إهتم المصريون فى عصر الأهرام بتسجيل مناظر مختلفة على جدران المقابر التى حول الأهرام ، وبهذا كانوا أقدم شعب فى العالم ترك لنا مناظر مصورة تكشف لنا عما كانت عليه حياتهم . ولذلك فإنه يخيل لزائرها كأنما انتقل به الزمن وأنه يجوس خلال بيوت أولئك القدماء ويمشى فى بلاد وادى النيل فى الوقت الذى كان فيه يبنى سكانه تلك الأهرام العظيمة .

وحرص المصريون فى ذلك العهد على أن يبنوا لكل مقبرة هيكلا يقيمونه فوق سطح الأرض بينما يدفنون الميت تحتها ، وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن روح صاحب القبر تخرج من حجرة الدفن لتزور الهيكل ، ولهذا كان أقارب الميت يتركون المآكل والمشروبات فى الهيكل ويضعونها على مائدة من الحجر لتجدها الروح ، وكانوا يحرصون أيضاً على أن ترى الروح حولها ما اعتادت على رؤيته أثناء الحياة ، ولذلك اهتموا بنفس مناظر الحياة اليومية على جدران الهيكل من السقف إلى الأرض وتفننوا فى إتقان رسمها وتلوينها ، وهى توضح لنا نوع الحياة التى عاشوها .

وإذا فحصنا هذه الصور التى على جدران الهياكل فإننا نتعلم منها الشىء الكثير . فهذا هو الوجيه نفسه مرسوم بحجم كبير يقف ناظراً إلى حقوله ويراقب ما يجرى فيها من عمل . ونحن اذ نمتع ناظرينا برؤية المنظر يجب ألا يغيب عن ذهننا أن هذه هى أقدم مناظر فى تاريخ العالم تبين لنا العمل فى زراعة وحرث الحقول . وإلى جانب هذه المناظر نرى قطعان الماشية مرسومة فى صفوف طويلة ، فهنا أبقار يقيدونها ليحلبوا منها اللبن ، وهناك ثيران تجر المحاريث وتساعد الانسان بالتخفيف عن عاتقه . وعلى هذه الجدران التى نقشت فى عصر الأهرام لا نرى أثرا لرسم الخيل

لأنها كانت غير معروفة فى مصر اذ ذاك ولكننا نرى الكثير من رسوم الحمير وعلى ظهورها أحمال من الحبوب ، ولولاها لما تمكن الإنسان من جمع المحاصيل .

وعلى الحائط الثانى نرى الوجيه مرة أخرى مرسوما بحجم كبير يلقى نظرة على المظلات والقاعات التى يعمل فيها الصناع الذين فى خدمته . فهناك يجلس نحاس من المؤكد أنه لم يسمع فى حياته بسلفه الذى التقط أول قطعة من هذا المعدن قبل ألفى سنة تقدم خلالها الصانع المصرى تقدماً كبيراً وأصبح الآن قادرا على صناعة أدوات دقيقة من النحاس من جميع الأنواع . ولكن الآلة التى كانت تحتاج إلى مهارة أكثر من كل ما عداها كانت المنشار الطويل المستوى الذى عرف النحّاس كيف يطرقه ويشكله من قضيب من النحاس طوله خمسة أو ستة أقدام . ولم يقف الأمر بصانع النحاس عند هذا الحد بل بلغ من القدرة فى صناعته أن ينفذ طلبات تدهشنا اليوم مثل ماسورة من النحاس طولها ١٣٠٠ قدم (نحو ربع ميل) كشفت عنها الحفائر فى معبد أحد الأهرامات ، وكانت موضوعة تحت أرضيته لتصريف المياه ، وهذه الماسورة هى أقدم أعمال السباكة التى عرفها العالم حتى الآن .

وعلى الجدار نفسه تقع أعيننا على صانع الأوانى وهو يقدم للوجيه أوانى فخمة من الحجر الديوريت راجياً أن تحوز إعجابه ، وبالرغم من أن هذا الحجر فى درجة معدن الصلب فى صلابته ، فقد كان فى مقدرة الصانع القديم أن يرقق من جدرانه إلى أن يصبح نصف شفاف ويخترقه الضوء فنرى من خلاله عروق الحجر الرمادية اللون. وهناك أيضاً صنّاع الأحجار الثمينة يقطعون ويصقلون قطعا صغيرة من الفيروز الأزرق الجميل لكى يرصعوا بها فى دقة مدهشة سطح أناء فخم من الذهب أتم الصائغ صنعه .

إلى جانب ذلك نرى مظلة الصائغ وقد اكتظت بالصناع ومساعديهم يطرقون ويصبون ويلحمون ويجمعون اجزاء من الحلى بعضها إلى بعض . فقد نبغ هؤلاء

الصياغ فى عملهم ، وكانوا يصنعون حليا لا يمكن أن تخرج يدا الصائغ أو الجوهرى الحديث أفضل منها .

وعلى مقربة منه نرى صانع الفخار الذى لم يعد يصنع أوانيه بأصابعه كما كان الحال فى العصر الحجرى ، بل ها هو يجلس أمام عجلة أفقية الوضع يديرها ويشكل أوانيه عليها بمهارة تامة ، وبعد أن تجف هذه الأوانى المصنوعة من الطين لا يضعها الصناع فى وسط نارفيحرقوها كما كان يفعل الفخاريون فى العصر النيوليتى فى قرى

شكل : ٢٧ ـ رسم بارز على الحجر فى مقبرة وجيه من عصر الاهرام

يقف هذا الوجيه الى اليمين وقد رسمه الفنان بحجم كبير ، وهو يتفقد صفوفا ثلاثة من الماشية وصفا من الطيور جاءوا بها اليه . وفى الصفين اللذين فى الوسط نرى الكتاب وهم يسجلون بأقلامهم فى قراطيس البردى ، ونرى واحدا منهم وقد وضع قلمين خلف أذنه . وكانت أمثال هذه المناظر تنقش على الحجر ثم يلونها الرسامون بألوان زاهية

البحيرات السويسرية ، بل نراهم يحملونها إلى حوش صفت فيه أفران مغلقة من الطين الناشف ارتفاعها مثل قامة الرجل ، وكانت الأوانى ترص داخل هذه الأفران ويخرجها بعد أن يتم حرقها فى تلك الأفران التى لا يؤثر الريح فيها أو يسبب عيوبا فى صناعتها . وعلى هذا الجدار نرى الصناع وهم يصنعون الزجاج ، ولكن ليس بالصورة التى نعرفها ، وإنما بوضع طبقة زجاجية (Glaze) فوق مادة من المواد ، فقد عرف المصريون ذلك قبل بضعة قرون ، وكانوا يصنعون قوالب صغيرة يغطون سطحها بطبقة زجاجية ذات ألوان زاهية ليجملوا بها جـــدران المنازل والقصور ، وفى العصور التاليـة عرف الصانع المصرى كيف يصنع الزجاج الحقيق وصـنع منـه زجاجات وأوانى ذات ألوان عديدة كثيراً ما بعثوا بها كسلع تجارية إلى الشعوب الأخرى .

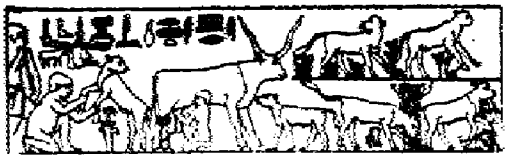

شكل : ٢٨ — فلاح يحلب بقرة — من عصر الاهرام

وقفت البقرة ساكنة بعد أن ربط الراعى رجليها الخلفيتين بالحبال ونرى خلفها رجلا آخر يمسك بعجلها الرضيع الذى يثب على رجليـه الخلفيتين ويـنـدفع باذلا جهده ليصل الى اللبن .

وترينا المناظر التى على هـــذه الجدران نساء ينسجن الملابس الكتانية . ولسنا نتوقع أن تعطينا الصورة فكرة عن دقة صناعته ولكن وصلت الينا لحسن الحظ بعض قطع من الثياب الكتانية المصنوعة للملوك كانت قد لفت بها مومياء أحـد ملوك ذلك العصر ، وعرفنا منها إلى أى مدى تفوقت الصناعة المصرية ، فأخرجت كتانا على النول اليدوى بلغت فيه دقه النسيج ماجعل من الصعب أن نميزه عن الحرير ،

وإذا قارناها بخير ما يمكن أن ينتجه النول الميكانيكى الحديث فإن صناعتنا الحالية خشنة بالنسبة اليها . وأخرج النساجون المصريون فى تلك الأيام كثيرا من أنواع الثياب كانوا يصنعونها على أنوالهم اليدوية ، وكثيرا ما صنعوا أنسجة موشاة لتعلق على جدران قصر الملك أو لتستعمل سقفا يظلل حديقة السطح فى بيوت الوجهاء ، لأن هؤلاء النساجين كانوا أول من صنع تلك الأنسجة الموشاة بين شعوب العالم .

وهناك أيضاً مناظر لرجال حفاة الأقدام يجمعون حزمات كبيرة من أعواد البردى التى تنمو فى المستنقعات على مقربة من النيل ، ومع مرور الزمن حملت المراكب المصرية كثيراً من كميات الورق المصنوع فى وادى النيل مع ما كانت تحمله من بضائع وتنقله فى البحر الأبيض المتوسط إلى سوريا وأوربا. فإذا ما انتقلنا إلى الحائط المجاور نرى النجارين وبناة السفن وهم يعملون. وقد أجاد الفنان رسمهم حتى ليكاد يخيل الينا أننا نسمع صوت ضربات الشاكوش والقادوم ، فهؤلاء النجارون يقومون بصنع الأثاث الفخم لبيت الوجيه . وبلغ هؤلاء الصناع حداً كبيرا من التقدم وكانوا يحلون الكراسى والأرائك التى يصنعونها للملوك بصفائح الذهب ويطعمونها بالأبنوس والعاج وينجدونها بوسائد من الجلد الأملس . وعلى مقربة من مصانع الأثاث نرى صفا من المراكب ، ونرى العمال منتشرين فوقها كالنمل يجمعون أجزاء الزوارق وأجزاء أقدم السفن البحرية التى عرفها التاريخ

وزادت الملاحة النهرية التى بدأت فى عصر « الاتحاد الأول » زيادة كبيرة لأن التقدم السريع فى الصناعة أخرج كثيرا من الادوات وساعد على تشجيع التبادل التجارى بين المدن المختلفة ، وكثيرا مانرى تلك المراكب مرسومة على جدران المقابر وكانت صفحة مياه النيل زاخرة بها ، وكانت حمولاتها إما ضرائب مرسلة للخزانة الملكية أو إسلعا فى طريقها إلى أسواق المدن للتبادل عليها بسلع أخرى .

وبين مناظر المقبرة نفسها أحد الأسواق، ونرى فيه صانع الأحذية يعرض على

الخباز زوجا من الصنادل مقابل رغيف أو أرغفة من الخبز ، وزوجة النجار وهى تعطى صائد السمك صندوقا صغيراً من الخشب ثمنا لسمكة ، وزوجة الفخارى وهى تعرض أناءين مما أخذته حديثا من الفرن على العطار مقابل أناء فى داخله بعض العطور

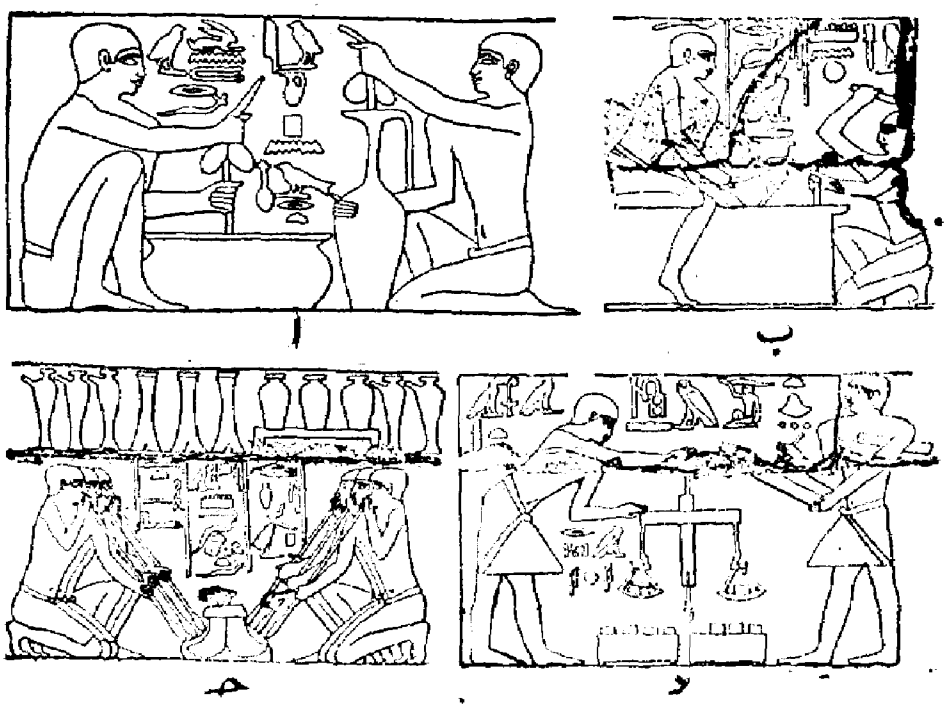

شكل : ٢٩ — صناع مصريون أثناء العمل

(ا) صانعو الاوانى يجوفون أوانى حجرية بآلة تشبه المثقاب المجنح ، ولهذه الآلة يد ، ومثبت فى أعلاها ثقلان ليحفظا التوازن ، وكانت اليد من الخشب أما السلاح القاطع فكان من الظران . (ب) نجارون يستعملون قادوما أو ازميلا ومدقة فى عمل باب . (حـ) صانعو معادن ينفخون فى قصبات لعمل تيار من الهواء يدفعون به الى مزيج من الفحم والنحاس الخام ليحصلوا على معدن النحاس نقيا . وهذا هو أبسط أنواع الكور . (د) صياغ يزنون قضبانا من الذهب (مناظر من مقبرة مرروكا فى سقارة)

كان هؤلاء الناس لا يعرفون العملة النقدية . وكان تبادل السلع هو أساس التعامل بينهم ، وهذا هو ما كان يحدث بين كل طبقات العامة . ولكن الأمر يختلف فى سراى الملك ومكاتبها . فقد كانوا يتعاملون بحلقات ثقيلة من الذهب ذات وزن محدد متفق عليه ، كانت تقوم مقام النقود . وكانت هناك أيضا حلقات من النحاس لتأدية الغرض نفسه . ولا شك أن تلك الحلقات كانت الأصل فى عملة النقد فيما بعد .

ولم يكن أولئك الناس الذين رأيناهم فى السوق إلا من عامة الشعب فى عصر الأهرام . وكان بعضهم أحرارا لهم الحرية التامة فى ممارسة تجارتهم أو صناعتهم ، والبعض الآخر كانوا أرقاء يعملون فى حقول أصحاب الملكيات الكبيرة . ولم يكن

شكل : ٣ ـ مناظر فى سوق مصرية (عن ليبسيوس)

فى هاتين الطبقتين الفقيرتين من يملك أرضا . وكانوا يأتمرون بأمر من يملكون الأراضى وهم الملك ورجاله وموظفوه الذين عرفنا أسماء الكثيرين منهم لأنهم تركوها مكتوبة فى مقابرهم . وإذا تجولنا بين مقابر الجيزة وسقاره نستطيع أن نكتب بيانا بأسمائهم ويكون هذا البيان أشبه « بدليل » لعظماء المصريين الذين كانوا يقطنون فى أفخم أحياء العاصمة فى الوقت الذى كانت تبنى فيه الأهرام أى منذ وقت يقرب من خمسة آلاف عام . فمن قراءة أسمائهم وألقابهم نعرف من كان منهم وزراء أو رؤساء للخزينة ومن هم الذين تولوا المناصب الرئيسية فى القضاء ومن هم الذين كانوا مهندسين معماريين أو أمناء أو فى القصر أو من كانوا رجال البلاط وهكذا . نعرفهم جيداً ونعرف مقابرهم . بل وصل بنـــا الأمر أننا نعرف شبه الكثيرين من أولئك الوجهاء ، وذلك من تماثيلهم التى كانوا يحرصون على جعلها صورة مطابقة لشكل صاحبها .

وكان أعضاء البيت المالك هم أهم طبقة بين أولئك الوجهاء . ولنتحدث قليلا

عن أم الملك خوفو . كان قبرها الأصلى فى مكان بعيد عن الجيزة وتمكن اللصوص من دخول قبرها وسرقة جزء مما كان فيه . فلما علم ابنها بهـذا الحادث جزع وأمر موظفيه أن يحضروا تابوتها وجميع الأثاث الجنازى الذى كان مدفوناً معها إلى الجيزة لأنه أراد أن تدفن أمه فى مكان أمين . وكان العمل جارياً فى الهرم الأكبر ولهذا اختاروا لمستقرها الجديد مكاناً إلى الشرق. وحفروا بئراً عمقها نحو مائة قدم قطعوها فى الصخر، وفى نهايتها نحت العمال حجرة نقلوا إليها الأثاث الجنازى الخاص بأم الملك، وبعد أن أتموا ذلك ملأوا البئر كله من أسفله إلى أعلاه بأحجار مبنيه وأحسنوا إخفاء معالم الجزء العلوى من هذا البئر ، ونجحت هذه الطريقة فى حماية ذلك المستودع من العبث فلم تمسسه يد إنسان قرابة خمسة آلاف عام .

فلما اكتشفتها بعثة هار فارد — بوسطون وجدوا أن أخشاب ذلك الأثاث الجميل قد بلى أو انكمش إلى حد غير معالمه ، ولكن صفائح الذهب التى كانت تغطى تلك الأخشاب بقيت كما هى . وبذلك أمكن عمل خشب جديد وضعوا فوقه صفائح الذهب القديمة . وبذلك أصبح فى استطاعتنا أن نرى الهودج الذى كانت تحمل فيه الملكة عند خروجها للنزهة ، وهو يشبه عربة لاعجل لها كانت تجلس فوقه الملكة مادة رجليها إذا شاءت ويحمله أتباعها فوق أكتافهم . ومع ذلك الهودج نرى الكرسى الذى كانت تستريح فوقه عندما كانت تعود إلى القصر ، والسرير الذى كانت تنام فوقه ، وصندوق حليها الذى كانت وصيفاتها يضعن فيه حلقات فخمة من الفضة مرصعة بفراشات صنعت من الفيروز الأزرق واللازورد والعقيق الأحمر، وكانت الملكة تزين رجليها بهذه الحلقات (الخلاخيل) فى الحفلات التى كانت تقام فى القصر . وقد احتوت المقبرة على الكثير من أشياء الملكة الخاصة حتى الإبرة النحاسية التى كانت وصيفات الملكة يخيطن بها ثياب سيدتهن . كانت كل هذه الأشياء هدايا من زوجها الملك سنفرو وابنها الملك خوفو وهى مصدرنا الأوحد

لمعرفه حياة الرفاهية التى عاشها الملوك فى عصر الأهرام[١] وهى تكشف لنا عن صفحة من الفن والحياة فى قصور الملوك فى عصر يسبق الملك « توت عنخ أمون » بأكثر من ألف وخمسمائة سنة .

وكان رجال البلاط يحيون حياة رفاهية لا تكاد تقل عن حياة أفراد العائلة الملكية . فنى مقابر هؤلاء الرجال مناظر جميلة تمثل الواحد منهم وهو يجلس فى الهودج عائداً إلى منزله بعد أن تفقد أحوال أملاكه ، وقد حمله أرقاؤه إلى الحديقة التى أمام منزله . وها هم يضعون الهودج على الأرض ويتوقفون عن الغناء[٢] ، ثم تتقدم زوجته لتحيته وتأخذ مكانها إلى جواره ، فهى زوجته الوحيدة ولها مقام عظيم وتتمتع بجميع الحقوق التى يتمتع بها زوجها . وحديقة المنزل جنة الوجيه ، وأحب الأماكن إلى قلبه ، وفيها يستطيع أن يستجم ساعة من ساعات فراغه مع عائلته وأصدقائه يلعب السيجة أو يستمع إلى أنغام القيثار الذى تمسك به زوجته أو إلى فرقة مكونة من ثلاث آلات موسيقية هى القيثار والمزمار والعود ، أو ينظر إلى النساء اللاتى يرقصن أمامه تلك الرقصات البطيئة الوقورة التى كانت سائدة فى ذلك العصر . وفى تلك الإثناء يمرح أطفاله بين الأشجار أو يخوضون فى البركة التى فى الحديقة يطاردون مافيها من سمك . وأحياناً يلعبون بالكرة أو بالعرائس أو يلعبون « النطة » أو يعاكسون القرد الأليف الذى يحتمى منهم بالكرسى ذى الأرجل المصنوعة من العاج الذى يجلس عليه أبوهم .

ولن نستطيع أن نعرف معرفة تامة جميع المؤثرات التى رفعت الناس فى أوائل

---

١ ـ انظر مقالات ريزنر (G.A. Reisner) فى مجلة Bulletin of the Boston Museum of Fine Arts. May, 1927, Supplement to Vol. XXV, Vol. XXVI (1928) pp. 76-88; Vol. XVII (1929), pp. 83-90; Vol. XXX (1932), pp. 55-60.

٢ ـ هذه الاغنية وأمثالها مسطورة على جدران المقابر فى ذلك العصر

عصور التاريخ من الهمجية والغرائز الحيوانية إلى اللطف والمجاملة ، ولكن هنا فى مصر حيث نرى من المناظر المرسومة على آثارها ، أول المناظر للحياة العائلية يمكننا القول بأن الفترة الطويلة التى يعتمد فيها الأطفال الذين لاحول لهم على معونة وحماية أبيهم وأمهم . كانت لها تأثير فى تهذيب همجية الإنسان الذى عاش فى العصور المبكرة وتحويلها إلى رغبة واهتمام عاطفى لأسعاد الزوجة والأطفال . وهذه المناظر العاطفية التى تأخذ بألبابنا عندما نراها مرسومة على الآثار المصرية ، توضح لنا تلك النتيجة السعيدة التى وصل إليها الإنسان بعد عصر طويل .

وفضلا عن ذلك فإن النقوش التى فى مقابر ذلك العهد السحيق توضح لنا كيف كان المجتمع يعترف بأن حق الفرد فى تلقيبه بأنه حسن الخلق يتوقف على أخلاقه والروح التى يعامل بها عائلته أى أباه وأمه وإخوته وأخواته . وكثيراً ما نقرأ فى مقابر هؤلاء الوجهاء عندما يريدون تلخيص جميع مافيهم من صفات حميدة : « كنت شخصاً يحبه أبوه وتعزه أمه ، وكان إخوته وأخواته يحبونه » ولكن فى الوقت ذاته نرى أن الأخلاق الحسنة لم تقتصر على البر بالأهل فقط بل اتسعت هذه الدائرة فى عصر الأهرام وأصبحت تشمل البر بالجيران بل وبجميع من عاش فى المنقطة . وكان هؤلاء الناس الذين عاشوا منذ ٤٥٠٠ سنة أو ٥٠٠٠ سنة يكررون مرة بعد أخرى انهم لم يقترفوا إثماً ، لأنهم اعتقدوا بأن الاستقامة الخلقية كانت ضرورية فى نظر الآلهة ولها أثرها فيما يتوقع أن يلاقيه الإنسان من سعادة فى حياته التى سيحياها بعد الموت . وها هو « حرخوف » أحد وجهاء جزيرة أسوان (جزيرة الفنتين) والذى قام برحلات استكشافية فى السودان فى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد يشرح لنا السبب الذى جعله يحيا حياته المثالية : « لقد أردت أن يكون الأمر خيراً بالنسبة إلى فى حضرة الآله العظيم » . كان أمثال هذا الوجيه يدركون تماماً أنه كانت عليهم واجبات رفيعة ، وها هى إحدى حكم الوزير العظيم « بتاح حتب » :ـ

« طوبى للرجل الذى يجعل الحق رايته ويسير وراءها دائماً » ولقد كان قدماء المصريين لا يفكرون فى الجمال إلا إذا قرنوه بالخلق الطيب . وقد نمت هاتان الصفتان معاً فى وسط التنعم والترف .

وكثيراً ما كان يجلس أمثال هذا الوجيه فى الحديقة واضعاً إحدى يديه على رأس كلبه ويشير بيده إلى رئيس البستانيين مصدراً إليه تعليماته بشأن الخس الطازج الذى يريد أن يأكل منه فى المساء فى بيته الفسيح المريح المبنى من الطوب اللبن والخشب . وكان مثل ذلك البيت بسيطاً راعى فيه من بناه أن يكون ملائماً للجو ، يجرى فيه دائماً النسيم ، وله نوافذ فى كل جانب ، وجدران قاعات الاستقبال تكاد تكون إطارات فيها ستائر زاهية الألوان يتركونها ملفوفة ولا ينشرونها إلا عند الضرورة لحمايتهم من الرياح أو العواصف الرملية . وأعطى هذا التنظيم للمسكن مظهراً لطيفاً ترتاح إليه النفس وجعل منه تحفة فنية ترينا كيف كان المصرى القديم يحب أن يرى نفسه محاطاً بالجمال ، وكيف استطاع أن يجعل أشياءه المفيدة الضرورية له جميلة جذابة .

وعندما يجلس هذا الوجيه ومعه زوجه وأصدقاؤه إلى العشاء فإن الجمال يحيط به من كل ناحية ، فكانت يد ملعقته مزخرفة برسم زهرة اللوتس ، وكان النبيذ يتلألأ فى كأس شرابه ، وكان ازرق اللون يشبه زهرة اللوتس أيضاً ، وكانت أرجل كرسيه الذى يجلس عليه أو الأريكة التى يلقى نفسه عليها للاستجمام مصنوعة على شكل أيادى وأرجل الأسد أو الثور . أما القاعة التى كان يجلس فيها فكان سقفها ملوناً باللون الأزرق كالسماء تسبح فيها النجوم ، ويحمل هذا السقف أعمدة على هيئة جذع النخيل يزين الجزء العلوى منها ما يمثل الجريد . وكان هذا الجزء مصنوعاً من الخشب وملوناً باللون الأخضر الداكن ليكون شبيهاً بالطبيعة . وأحياناً كانت أعمدتهم شبيهة بساق زهرة اللوتس ، ترتفع من الأرض لتحمل هذا السقف الفيروزى

اللون فوق أزهارها المتفتحة . وكثيراً ما كانوا يضيفون رسم بعض الحمام أو الفراشات إلى رسم النجوم فى سقف القاعة . وكذلك زينوا الأرضية بمناظر شديدة الخضرة تمثل نباتات متعددة يتخللها الماء ويسبح فيها السمك بين أعواد القصب المتمايلة . ونرى هناك أيضاً رسم الثور الوحشى وهو ينظر إلى الطيور التى تزقزق وهى تطير فوق تلك النباتات محاولة أن تخيف ابن عرس إذا جاء يتلصص ليلتهم ما فى أعشاشها. ولولا وجود الفنانين المتمرنين، لما أمكن رسم أمثال تلك المناظر على جدران المقابر. وفى مقبرة منها نرى الرسام الذى نقش المقبرة قد رسم نفسه جالساً إلى مائدة مع غيره من الموظفين الذين يعملون فى دائرة الوجيه . لقد نجح أمثال هذا الفنان فى تلوين مناظرهم ، وجعلوا المظهر العام للحائط أو للحجرة مقبولا وجميلا . ويثبت لنا نجاحه فى التكوين أنه كان ذكياً مرحاً . ولكنه لم يأبه بقواعد الرسم المنظور ولم يعرفها فى رسومه. وكان يستوى لديه فى الحجم المناظر البعيدة أو التى على مسافة متباينة مع تلك التى أمامه .

وكان أهم الفنانين فى ذلك العصر هم المثالون الذين كانوا ينحتون من الخشب أو الحجر تماثيلهم ويلونونها لتصبح أكثر محاكاة للأصل. وكانوا يضعون فى مكان العين بلوراً صخرياً يشع دائماً بنور الحياة . كانت هذه التماثيل صورة صادقة لأصحابها ووصل فيها الفنانون إلى مستوى رفيع من الإتقان لم يصل إليه فنانون آخرون فيما بعد ، مع أنها أقدم التماثيل التى جاءت مطابقة لصورة أصحابها فى تاريخ الفن .

وتماثيل الملوك كانت رائعة فى أغلب الأحيان، وكانت توضع عادة فى معابد الأهرام . وأضخم ماصنعته يد المثال فى عصر الأهرام هو تمثال « أبو الهول » فى جبانة الجيزة ورأسه على شكل رأس الملك خفرع بانى الهرم الثانى، والتمثال كله نحت فى نتوء من الصخر على مقربة من المدينة الملكية .

أشرنا قبل الآن إلى جمال المبانى التى أقامها « أمحوتب » . وقد تلا ذلك خطوة هامة فى فن العمارة نراها واضحة فى أعمدة وجدران معبد الوادى الخاص بالملك خفرع، وهو الذى يقع إلى جوار « أبو الهول ». وكان الضوء يدخل إلى البهو الكبير فى هذا المعبد من عدد من الفتحات المائلة على مقربة من السقف . وكان سقف الجزء الأوسط من البهو أكثر ارتفاعاً من السقف الذى على الجانبين. وكان النور يدخل من فتحات فى الجزء الذى بين السقفين ، ونقل اليونان والرومان هذا النوع من تنظيم الأبهاء عن المصريين ، وعنهم اقتبس المعماريون فى العصر المسيحى

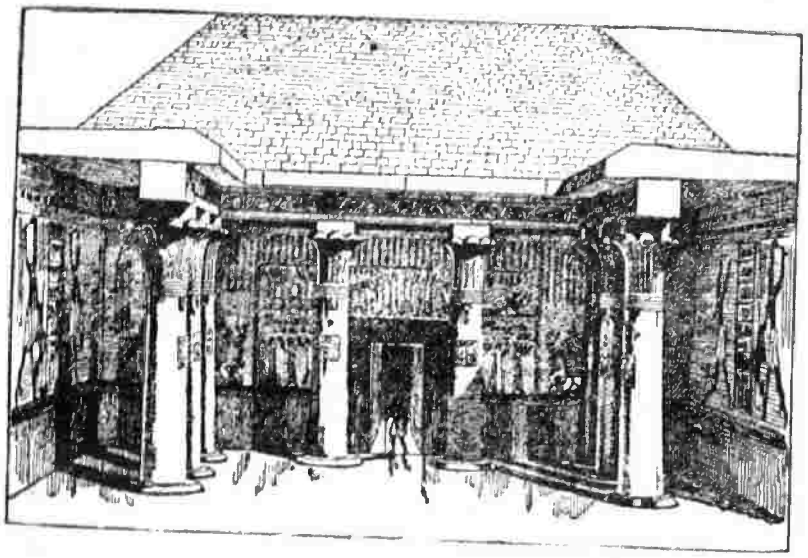

شكل : ٣١ ـ أعمدة فى ردهة أحد معابد الاهرام

نرى فى هذا الرسم أن الردهة كانت غير مسقوفة فى الوسط وكانت جوانبها فقط محمولة على سقف مقام على أعمدة من نوع الاعمدة النخيلية ذات التيجان على شكل الجريد . وكانت هذه الردهة بما فى ذلك الجدران التى خلفت الاعمدة ملونة بألوان زاهية طبيعية

واستعملوه فى بناء السقف والنوافذ فى الجزء الأوسط من الكنائس المقامة على طراز البازيليكا (basilica) وفى الكاتدرائيات . وهكذا كان البهو الجرانيتى

فى معبد خفرع الأصل الذى نقل عنه أهم أنواع العمارة المسيحية الذى انتشر فى أوربا بعد عهد خفرع بأكثر من ثلاثة آلاف سنة .

ويحس الزائر لمعبد خفرع بضخامة وعظم وزن الأعمدة ، ولكن لم يكد يمر قرن واحد حتى أخذ المعماريون المصريون يفضلون الرشاقة على العظمة ، وبدلا من أن يقيموا تلك الأعمدة المربعة الثقيلة الوزن ، فإنهم فضلوا استعمال أعمدة مستديرة رشيقة النسب خفيفة الوزن ذات تيجان جميلة ، شبيهة بطراز سبق أن رأيناه فى مبانى « أحوتب » ، وكانوا يبنون هذه الأعمدة فى صفوف، وبهذا كانوا أول شعوب العالم فى بناء الأبهاء القائمة على الأعمدة .

ولم تلبث هذه الأشياء النافعة الجميلة أن شقت طريقها من مصر عبر البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا، وعن طريق البر إلى غرب آسيا . وكان الفضل فى ذلك للصلة التجارية التى حملت معها هذه الأشياء .

وسنرى فيما بعد أن غرب آسيا كان يتقدم بدوره نحو الحضارة خطوات تثير الدهشة ، وبدأت حضارته تترك لنفسها أثراً فى مصر . وكان للتجارة أثرها أيضاً فى

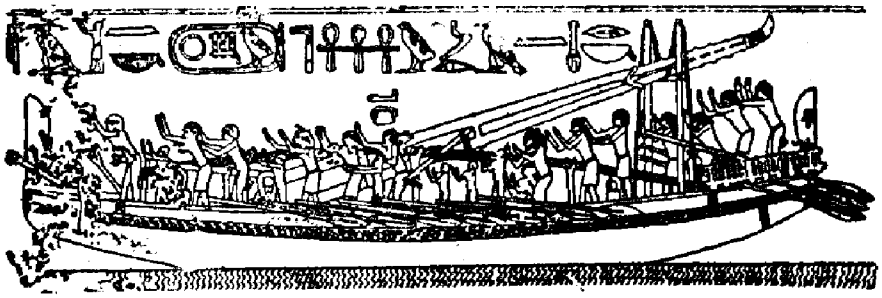

شكل : ٣٢ — أقدم رسم لسفينة بحرية (القرن السادس والعشرون ق٠م)

أحد المناظر فى معبد هرم الملك « ساحورع » ٠ وفيه نرى جميع من فى السفينة يرفعون أذرعهم وينحنون لتحية الملك الذى كان واقفا على الشاطىء ولكنه قد تهشم الان ، وارتفعت أصواتهم بالدعاء له ٠ وفى السطر الذى فوقهم : « التحيات لك ياساحورع ياملك الاحياء ، اننا نمتع أنظارنا بجمالك » ٠ ونرى بين ركاب السفينة بعض الاسرى الفينيقيين الذين كانوا على ظهرها ، وكانت هذه السفينة واحدة من ثمانية ذهبت الى الطرف الشرقى من البحر الابيض ثم عادت سالمة ، وأنزل بحارتها الصارى الكبير المزدوج ٠ وأصبح هذا النوع من السفن شائعا بعد ذلك فى البحر الابيض المتوسط ، وانتشر فى جميع البحار بين ايطاليا والهند ٠

الاتصال بين غرب الدلتا وكريت . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن ملوك مصر بدأوا هذه الصلات الخارجية وخاصة ما كان منها بطريق البحر قبل عصر الأهرام بقرون عديدة .

ولم يقف نشاط الملوك عند حد إرسال السفن التجارية وحملات التعدين إلى سيناء بل كانوا يرسلون أيضاً حملات إلى السودان لتتجر مع أهل الجنوب ، وكانت تفرغ البضائع على ظهور الحمير وتعود محملة بعد ذلك بالأبنوس والعاج وريش النعام وأنواع البخور ، وكان يذهب على رأس تلك الحملات موظفون لدى الملك رويت أخبار رحلاتهم على واجهات مقابرهم فى أسوان ، وفيها الكثير من مخاطراتهم بين القبائل غير المتمدينة فى الجنوب التى كلفت بعضهم حياته . وهؤلاء الرحالة هم أقدم من استكشف داخل القارة الأفريقية (١) ، وحاول معرفة الطرق الموصلة إلى المجهول من أرجائها .

وكان اسطول الملك ينزل أيضا إلى البحر الأحمر ليصل إلى بلاد « بنت » عند باب المندب حيث كان يجد أيضاً حاصلات السودان فتعود بها السفن عن طريق البحر .

وتدلنا عظمة حضارة المصريين فى عصر الأهرام على أن الحياة العامة كانت منظمة تحت حكم أولئك الملوك ، ولكن وجهاء البلاد أخذوا يقوون حتى جاء اليوم الذى لم يعد للملك السلطة التامة عليهم ، وأصبحت الحكومة المركزية فى حالة تفكك شديد ، ولم يأت منتصف القرن الثالث والعشرين ق . م وإلا وأصبحت البلاد مفككة الأوصال ، وانقسمت إلى مجموعات من الإمارات

---

١ — انظر مؤلف Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. I §§ 325-336, 350-374.

الصغيرة ، وبهذا انهار ذلك البنيان الذى ظل فترة طويلة ، وعادت حاله البلاد إلى ما كانت عليه قبل اتحادها .

كان ذلك العصر المبكر فى مصر فترة إنتاج غير عادية لشعب فى فتوته وجد لأول مرة من ينظمه فأخذ ينتج ويتقدم ماشاءت له مقدرته ونشاطه ، وأصبحت مصر بعدها فى مفترق الطرق فإما الوصول إلى انهيار السلطة المركزية وإفناء قوى الشعب بسبب التطاحن بين الحكومة وأمراء الأقاليم وإما بلوغ المصريين حلا يهيء للبلاد وحدتها مرة أخرى ويجعلها تستمر فى تطورها الثقافى ، وسنرى فى الفصل القادم كيف خرجت مصر من هذه الأزمة .